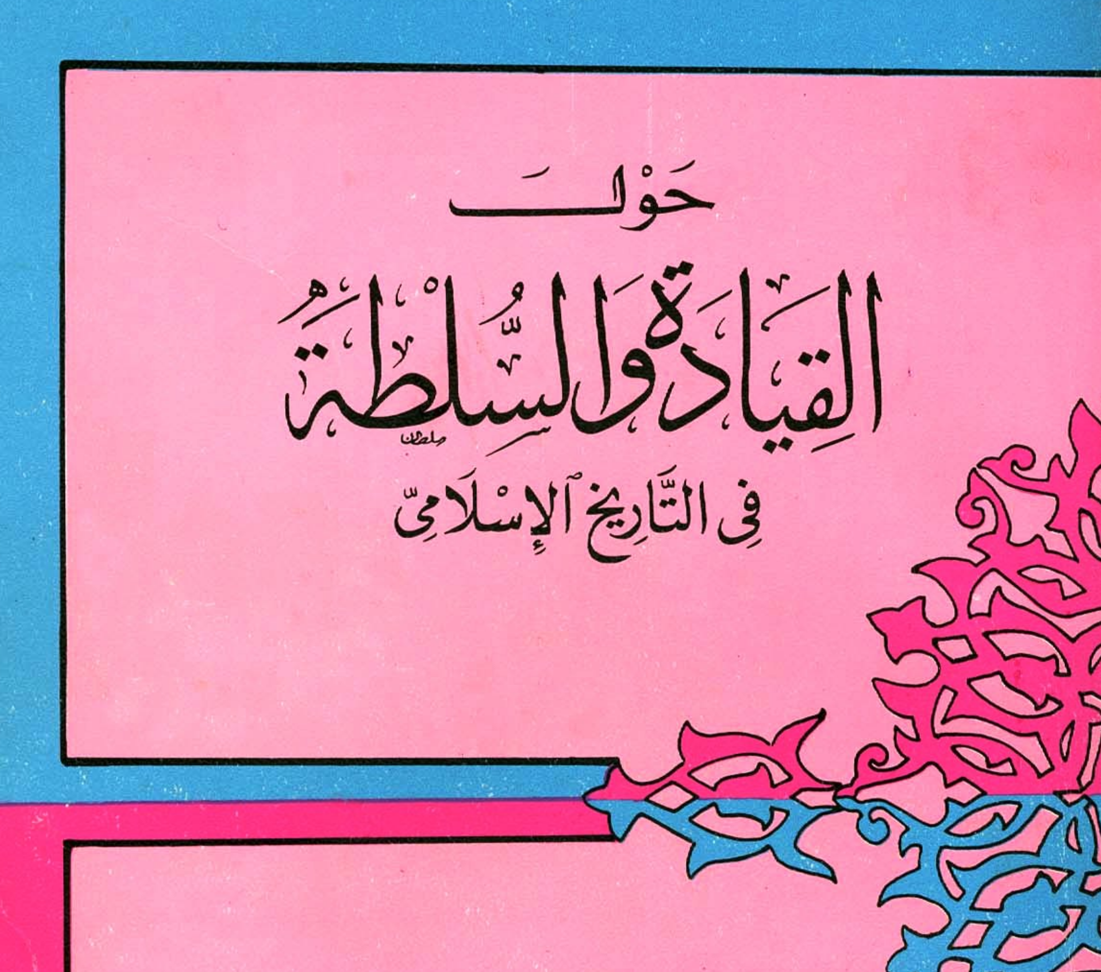


حول القيادة والسلطة في التاريخ الإسلامي

الدكتور عماد الدين خليل

مكتبة النور



نحمدك ربنا حمداً يليق بجلالك ، فلا حصر لنعمك ،
ولا حدود لفضلك ، ونصلي ونسلم
على أشرف عبادك
وأكمل خلقك

(الناشر)

الطبعة الأولى : ١٤٠٥ هـ = ١٩٨٥م



٨ شارع الأهرام ، روكسي ، مصر الجديدة ، هاتف : ٥٨٤٥٦٣

بسم الله الرحمن الرحيم

(١)

منذ لحظات اللقاء الأولى بين النبي ﷺ ، وبين مبعوث الله الأمين جبريل ، وحتى لحظات توديعه للحياة الدنيا ، كان يخطط ويبرمج ويتحرك بأصحابه وفق تصور واضح مرسوم ، وعبر طريق طويل بدءاً ببناء الإنسان المسلم بالعقيدة عبر المرحلة المكية كلها ، وانتهاءً ببناء الدولة الإسلامية بالتشريع عبر المرحلة المدنية ، من أجل حماية الإسلام من التفكك والضياع ، وتمكينه من مجابهة التحديات بمنحه المقومات الضرورية للبقاء والاستمرار . وإلا فإنه بدون هذه المقومات سوف ينكمش وينحصر ، ويعجز عن أداء مهمته كاملة ، ويكتفي بالجزئيات والتفاريق التي لا تؤثر في مجرى الوقائع والأحداث .

والقيادة الوثنية كانت تريده هكذا ؛ لكي لا يزعزع مراكزها ويدمر سلطانها ، وينتزع من بين يديها مركز القيادة ، الذي بدونه لن تكون كلمة الله هي العليا في الأرض .. وحاشاه ..

« إن الإسلام جاء لكي يعبّر عن وجوده في عالمنا من خلال دوائر ثلاث ، يتداخل بعضها في بعض ، وتتسع صوب الخارج ، لكي تشمل مزيداً من المساحات : دائرة الإنسان ، فالدولة ، فالحضارة . ولقد اجتاز الإسلام في مكة دائرة الإنسان ، ثم ما لبثت العوائق الاجتماعية والسياسية والدينية والاقتصادية أن صدّته عن المضيّ في الطريق صوب الدائرة الثانية حيث الدولة ، لأنه بلا دولة ستظل دائرة الإنسان ـ التي هي أشبه بنواة لا يحميها جدار ـ مفتوحة

علىٰ الخارج المضاد بكل أثقاله وضغوطه وإمكاناته المادية والأدبية ، ولن يستطيع الإنسان الفرد أوالجماعة المؤمنة، التي لا تحميها دولة أن يمارسا مهمتهما حتىٰ النهاية ، سيا إذا كانت قيمها وأخلاقياتها تمثلان رفضاً حاسماً لقيم الواقع الخارجي والتجربة المعاشة . ولابدّ اذن من إيجاد الأرضية الصالحة التي يتحرك عليها المسلم قبل أن تسحقه الظروف الخارجية ، أو تنحرف به عن الطريق . وليست هذه الأرضية سوىٰ الدائرة الثانية ، وليست هذه الدائرة سوىٰ الدولة التي كان علىٰ المسلمين أن يقيموها وإلا ضاعوا .

« وهجرة الرسول ﷺ (أو محاولته الهجرة بشكل أدق) تبدأ منذ اللحظات التي أدرك فيها أن مكة لا تصلح لقيام الدولة ، وأن واديها الذي تحاصره الجبال ، وكعبتها التي تعج بالأوثان ، لا يمكن أن تكون الوطن . ومن ثم راح يجاهد من أجل الهجرة التي تمنح المسلمين دولة ووطناً ، وتحيط كيانهم الغض بسياج من إمكانيات القوة والتنظيم والأرض » .

« والرسول ﷺ ، الذي علمتنا سيرته مدىٰ الواقعية الإيجابية التي كان يتمتع بها ، والحرص على الطاقة الإنسانية ألاّ تتبدّد في غير مواضعها ، سرعان ما نجده يتحرك صوب الخارج ، إلىٰ مكان جديد يصلح لصياغة الطاقات الإسلامية في إطار دولة تأخذ علىٰ عاتقها الاستمرار في المهمة بخطىٰ أوسع وامكانات أعظم بكثير من إمكانات أفراد تتناهبهم شرور الوثنية من الداخلَ ، وتضغط عليهم قيم الوثنية من الخارج ، ويصرف طاقاتهم البناءة اضطهاد قريش ، بدلاً من أن تمضي هذه الطاقات في طريقها المرسوم » .

«لقد تأكد للرسول ﷺ ، بعد كفاح أكثر من عقد من الزمن ، أن القيادة الوثنية المكية لا يمكن بحال أن تهادن الدين الجديد ، الذي جاء يمثل رفضاً

حاسماً لكل قيم الوثنية وأهدافها وتقاليدها ومصالحها .. وأنها ستظل تدفع حتى النهاية الأخطار التي يمثلها الإسلام بوجه أهدافها وتقاليدها ومصالحها .. »[١] .

لن يتسع المجال هنا لاستعراض الجهود التي بذلها الرسول عليه الصلاة والسلام لتحقيق هدفه الذي كُلّل أخيراً بالنجاح ، عبر لقاءات العقبة الثلاثة ، وقد تناولنا ذلك في غير هذا المكان فليس ثمة مبرر للتكرار[٢] .

« وفي اليوم الثاني عشر من ربيع الأول (٢٤ أيلول / سبتمبر ٦٢٢ م) من السنة الثالثة عشرة للبعثة ، وصل الرسول ﷺ وصاحبه رضي الله عنه يثرب ، حيث جرى لهما استقبال حافل من قبل أولئك الذين انتظروا رسولهم طويلاً ، وها هي تكبيراتهم تشق أجواز الفضاء .. إنهم سيبدأون معه وبه عهداً جديداً، كُتب لهم شرف وضع أسسه التي سيقوم عليها البناء، الدائرة الثانية من دوائر الدعوة ، هي دائرة الدولة التي ستحمي المسلمين أفراداً وجماعات وستمنح الإسلام خطوات حاسمة وسريعة في طريق النصر . فلا عجب أن يخرج الأنصار بأسلحتهم يستقبلون الرسول ﷺ ، فهم أولاء الجنود الذين سينضمون إلى إخوانهم المهاجرين ، وسيبنون معاً بقوة العقيدة والسلاح ، الدولة التي ستصنع حضارة تشرف الإنسان في كل مكان وتباركه ، وتضعه موضعه الحق الذي أراده له الله عندما استخلفه ومنحه السيادة على العالمين » .

« إن اليوم الثاني عشر من ربيع الأول ، هو نهاية حركة حاسمة من أجل إقامة (الدولة) التي ستتولى قيادة حركة الإسلام في العالم ، لكنه في الوقت

---

(١) دراسة في السيرة للمؤلف ص ١٢٨ ـ ١٢٩ .

(٢) المرجع السابق فصل (تحليل للهجرة) ص ١٢٧ ـ ١٤٤ .

نفسه بدء حركة حاسمة أخرى من أجل تعزيز الدولة وإقامة الحضارة ، تماماً كما كانت بعثة الرسول ﷺ ، في البدء ، حركة صوب تكوين (الإنسان) المؤمن صانع الدول والحضارات »[1] .

☆ ☆ ☆

(١) المصدر نفسه ص ١٣٩ ـ ١٤٠ .

(٢)

بدأ الرسول ﷺ منذ دخوله المدينة، يسعىٰ إلى إنجاز المهام الملقاة علىٰ عاتقه في مطلع المرحلة الجديدة من الدعوة ، والتي تستهدف إنشاء (الدولة الإسلامية) علىٰ أسس راسخة ، وتهيئة كافة الشروط والمتطلبات لتحقيق هذا الهدف .

ولقد كان بناء (المسجد) مركز القيادة والعبادة ، الخطوة الأولىٰ علىٰ هذا الطريق ، ثم أعقبه إصدار (الوثيقة) لتنظيم العلاقات السياسية داخل المدينة ، والتخطيط لمهام القيادة متمثلة برسول الله ﷺ . وجاءت واقعة (المؤاخاة) بين المهاجرين والأنصار لتنظم العلاقات الاجتماعية وتحلّ المشاكل المترتبة علىٰ الهجرة من مكة . ثم كان تشكيل جيش إسلامي مقاتل ضرورة (سياسية) رابعة ، لكي يتولىٰ حماية الدولة الناشئة وقيادتها الجديدة ، ويساعد علىٰ تحقيق أهدافها الحركية في الوقت نفسه .

ولقد وقفنا بعض الشيء عند تفاصيل وظروف الإجراءات الأربعة،التي مكنت للدولة الجديدة من مواصلة طريقها المرسوم[1] ، ولنا هنا أن نتابع بإيجاز الملامح الأساسية لحركة بناء الدولة الإسلامية ونمّوها التدريجي .

فلقد وضع القرآن الكريم ورسوله الأمين ﷺ ، بتلك الإجراءات الأربعة وغيرها ، القواعد الأولىٰ لدولة الإسلام في المدينة ، ومن ثم أخذت التشريعات المنبثقة عن هذين المصدرين تنمو وتتسع يوماً بعد يوم ، لا بطرائق نظرية تجريدية منفصلة عن الحياة والواقع ؛ وإنما وفق نفس الأسلوب الذي كانت الآيات المكية تتنزل فيه لكي تبني العقيدة في أذهان ونفوس الإنسان المسلم

---

(١) انظر دراسة في السيرة الصفحات ١٤٧ ـ ١٦٣ .

والجماعة المسلمة ، وهو أسلوب يرتبط ارتباطاً عضوياً حيوياً بالواقع الحركي والتجربة الحية المعاشة ، ومن ثم تجيء معطياته أشد التصاقاً بحركة المسلمين ونموّ دولتهم ، وأكثر ألتحاماً بتجربتهم المحسوسة وواقعهم المعاش ، وأعمق فهماً وإدراكاً لمتطلباتها وأبعادها القانونية والسلوكية ، نظراً لمواكبتها لمشاكلهم وتجاربهم اليومية ساعة بعد ساعة ، ويوماً بعد يوم .

لقد بدأت مرحلة بناء الدولة الإسلامية (العقائدية) في أعقاب الهجرة حيث كانت المرحلة السابقة ، مرحلة بناء الإنسان المسلم والجماعة المسلمة ، قد اكتسبت ملامحها الأساسية في العصر المكي ، وغدا المسلمون أفراداً وجماعات علىٰ استعداد نفسي وذهني كاملين لتقبل ما سيجيء من تشريعات ، وما سيفرض من تنظيمات ، ويوضع من حدود ، ويرسم من علاقات ، بعد أن هيأهم النضج العقيدي لتقبل كل ما يصدر عن رسول الله عليه الصلاة والسلام و(الإسلام) له و(الإيمان) به و(التقوى) خلال ممارسته في السرّ والعلن ، و(الإحسان) في إنجازه علىٰ أحسن ما يكون الإنجاز ، دون تردد ، أو سلبية ، أو خيانة ، أو غش ، أو تملّص ، أو رَفض ، أو تهرّب . إنما هو الخضوع اليقيني المتبصّر ، بأن هذا الذي يتنزّل في ميدان التشريع والتقنين إنما هو الحق المطلق ، والخير الكامل ، والصواب الذي ليس بعده إلاّ الضلال المبين .

وقد أتاح هذا التطور المبرمج لسير الدعوة الإسلامية ، أن يشاد البناء الجديد علىٰ أسس متينة متوغلة في أعماق النفس المسلمة علىٰ المستوىٰ الفردي والجماعي علىٰ السواء ، فجاء متماسكاً مترابطاً ثابت الأركان . فضلاً عن أن الإحساس الجديد بالزمن والمسؤولية ويقظة الضمير التي غرستها العقيدة الإسلامية في النفوس ، دفعت المسلم ليس إلىٰ تقبل التشريعات والحدود والأوامر الجديدة وتنفيذها بدقة فحسب ، بل إلىٰ كسب الوقت ، والمسارعة في

تحويلها إلى وقائع معاشة ، وتجارب وترجمات يومية ، وصيغ منقوشة على صفحة المكان والزمان ، كما دفعته إلى السعي للإحسان في الأداء ، والإبداع في التنفيذ من أجل بلوغ المرحلة القصوى من رضا الله وطاعته . وقد أتاح هذا كله إضطّراداً عجيباً في نموّ الأجهزة التشريعية للدولة الناشئة ، وسرعة مدهشة في نزول متطلباتها إلى الشارع والبيت والسوق والمسجد والميدان ، الأمر الذي يفسر لنا على المستوى الحضاري : الاختزال الزمني المدهش الذي مارسه المسلمون وهم يبنون عالمهم الجديد وحضارتهم المتوازنة .

لقد أسهم القرآن والرسول جنباً إلى جنب في رسم الخطط ، ووضع التشريعات ، وبناء المؤسسات ، وتغطية المتطلبات المتزايدة للدولة الجديدة . ولم يكن الدستور أو (الوثيقة) وحدها - رغم خطورتها في هذه المرحلة - هي كل شيء ، كما يحاول الكثير من الباحثين أن يصوروا من خلال مبالغتهم[1] . فالوثيقة ليست سوى لبنة واحدة في البناء التشريعي الكبير الذي وقع عبء إقامته على عاتق القرآن الكريم قبل كل شيء ، هذا إلى أن الكثير مما ورد في الوثيقة لا يعدو أن يكون برنامجاً مرحلياً بالنسبة للخارطة الثابتة الدائمة لدولة الإسلام ، واستراتيجيتها التشريعية الشاملة . ومن ثم فإن التأكيد على أهمية الوثيقة : فضلاً عن أنه يعدّ في حد ذاته خطأ تاريخياً وموضوعياً ، فإنه يحجب في الوقت نفسه الحجم الحقيقي للتشريع القرآني الذي كان يتمخض باستمرار عن مزيد من القوانين والتشريعات ، ويقود الباحث بالتالي إلى الرؤية الغربية الوضعية التي تجد في (الوثيقة) : محاولة بشرية أولية من المحاولات التي قام بها المشرعون على مدار التاريخ لتنظيم شئون دولهم

(١) أنظر على سبيل المثال : يوليوس فلهاوزن : تاريخ الدولة العربية وسقوطها ص ١ - ١٥

الناشئة . وأنه يجب ألاّ يغيب عن بالنا أبداً أن الرسول ﷺ لم يكن ينطق عن الهوىٰ ، وأنه كان يصدر في الخطوط العريضة للدعوة عن وحي الله ، وأن هذا الوحي يبدو أكمل ما يبدو في القرآن الكريم نفسه وكل الإنجازات والأعمال الأخرىٰ إنما هي إمتداد وتوسيع وتفسير فحسب لهذا الأصل (الإلهي) الكبير .

وثمة مسألة أخرىٰ تجدر الإشارة إليها في هذا المجال ، تلك هي إطلاق اسم (دولة المدينة) أو الدولة (اليثربية) على دولة الإسلام الأولىٰ بحكم قيامها بالمدينة المنورة ، ذلك أن تعبير (دولة المدينة) قد يسوق ها هنا إلى لبس ، يوهم أن المقصود إنها كانت دولة من النوع الذي يقوم فيه الكيان الإقليمي للدولة على (مدينة) من المدن (city – state) ، مثل أثينا أو إسبرطة في التاريخ القديم . والحق أن (دولة الهجرة) ارتبطت بيثرب ارتباطاً عارضاً . ولقد كانت دولة عقيدية عالمية من أول يوم ، وكان من الممكن أن تقوم في أي مكان يتبنىٰ الفكرة ويدين للعقيدة . كذلك فإن الدولة الجديدة في المدينة هي دولة الهجرة لا دولة المهاجرين ، فالمهاجرون هنا لا يعمدون الىٰ إفناء السكان الأصليين ، أو إجلائهم ، ولا يقيمون المستعمرات ، أو يصطنعون الحواجز بينهم وبين سكان المدينة التي أنتقلوا إليها .

وهكذا .. لا نجدتجارب توطين الأوربيين في أمريكا أو استراليا أو جنوب إفريقيا ،على أختلاف درجات حرارتها . إنها دولة فكرية عقيدية سكانها المقيمون فيها من قبل ، والمهاجرون الوافدون ، سواء في الاعتبار الإنساني والحقوق القانونية .. والعقيدة معروضة على كل إنسان بحكم إنسانيته ، أيّاً كان موطنه وأيّاً كانت عشيرته . إنها دولة مفتوحة لا تغلق نفسها على جماعة معينة شأن أية دولة (دينية) أخرىٰ ، قامت من قبل في التاريخ ﴿ **للفقراء الذين**

أُخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضواناً ، وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون ﴾[١] ، ﴿ والذين تبوّءو الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ، ويؤثرون علىٰ أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾[٢] ﴿ والذين جاءوا من بعدهم يقولون : ربنا أغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم ﴾[٣] .

« إن هذه الدولة فذة في تاريخ البشرية ، لأنها أقرّت مبدأين لا وجود لهما إلا في دولة غير دينية . وأول هذين المبدأين : هو حرية الأديان ، وهي حرية لا تقرها الدولة الإسلامية وتسمح بها فحسب ، بل إنها تتعهد برعايتها . وثانيهما : هو مبدأ تعريف فكرة الوطن والدولة في أوسع معانيها تسامحاً وإنسانيةً . وهو مبدأ يكفل المساواة في الحقوق والواجبات الوطنية بين جميع أفراد الدولة على إختلاف أجناسهم وألوانهم ولغاتهم وعاداتهم »[٤] .

ولقد أستكملت دولة الإسلام كل مستلزمات البناء القانوني للدولة ، والذي يقوم على أركان ثلاثة : الأمة ، والسيادة الداخلية والخارجية ، ثم الإقليم .. ولكنها ما أخذت مكانها ودورها في التاريخ لواحد من هذه الأركان . فلقد قامت (دولة الهجرة) علىٰ (أمة) ولكنها أمة : تقوم على أساس الفكر والعقيدة ، فهي (أمة) لا يمكن حصرها أو ضبطها لأنها لا تحدها لغة أو جنس أو

---

(١) سورة الحشر آية ٨ .
(٢) سورة الحشر آية ٩ .
(٣) سورة الحشر آية ١٠ عن محمد فتحي عثمان : دولة الفكر ص ١٦ ـ ١٧ .
(٤) د. أحمد إبراهيم الشريف : مكة في الجاهلية وعصر الرسول ، ص ٣٨٣ ـ ٣٨٤ .

وطن ، فقد عرض رسول الله ﷺ ، عقيدته على كل فرد وقبيلة ومدينة استطاع أن يعرض هذه العقيدة عليها ، وترك المجال أمام الإمكانيات الأيديولوجية لا الحتمية الجغرافية . وكان لدولة الهجرة (سيادة) داخلية وخارجية ، ولكنها سيادة تحققت في واقع الأمر من أول يوم في الإطار المثالي الذي تطلعت إليه فلسفة القانون إلى وقتنا هذا ، ولم تفلح في أن تجد سبيلا إلى التنفيذ . فهي سيادة قائمة على الأختيار الحرّ في اعتناق الفكرة من جانب الأفراد ، وفي الاجتماع لإقامة الدولة من جانب المجموع . ومن ثم تأسست سياسة الدولة الجديدة فعلاً وواقعاً على تقديس الحرية الإنسانية ، بحيث تكون هذه الحرية هي أساس الدولة الفكري وقانونها الأعلى . وكان لدولة الهجرة (إقليم) اختارته الظروف لها ، وكان اختياراً موفقاً ، لكنها لم ترتبط به ولم تقتصر عليه ، وكان من الممكن أن تقوم في أي مكان أخر يقبل الدعوة ، مكة أو الطائف مثلاً ، ذلك أن الدولة الجديدة دولة (فكرة) والفكرة تجد وطنها في كل مكان يوجد فيه عقل إنسان [١] .

☆ ☆ ☆

---

(١) محمد فتحي عثمان : دولة الفكره ص ١٨ ـ ٢٢ .

(٣)

اذا قدرنا علىٰ تجاوز التفاصيل والجزئيات ، وفككنا أنفسنا من أسر مئات الأخبار (الموضوعة) بعد الواقعة التاريخية بقرن أو قرنين ، في زمن الهوىٰ والميل والتحزّب .. اذا تمكنا من الارتداد صوب (البيئة التاريخية) التي تخلّقت فيها تجارب الانتخاب في العصر الراشدي زماناً ومكاناً وعقيدة وإنساناً . فإننا سنلتقي ومن خلال موقف أكثر شمولية وعلمية في الوقت نفسه ، مع تجربة سياسية تستحق التقدير والإعجاب .

بعد وفاة الرسول ﷺ مباشرة ، ورغم هول الواقعة التي هزّت كبار الصحابة أنفسهم ، يجتمع المسلمون أنصاراً ثم مهاجرين في سقيفة بني ساعدة ، ويمارسون لأول مرة في تاريخهم حواراً مفتوحاً يقوم على الكلمة والإقناع لأختيار مرشحهم الذي سيخلف رسول الله ﷺ في قيادة الأمة وسياسة دولتها الناشئة . ما استل سيف ولا أريقت قطرة واحدة من دم .!!

يطرح الأنصار مرشحهم معتقدين أنهم الأحق بأن يكون الخليفة منهم ، وهم الذين آووا الرسول عليه الصلاة والسلام ونصروه ، وبإرادتهم أتيح للحركة الاسلامية أن تجتاز مرحلة الدعوة التي أستهدفت تكوين الإنسان المسلم ، والجماعة المسلمة ، الى مرحلة الدولة ، التي تملك برنامج عملٍ سياسي وتشريعي لتغيير العالم بدءاً من جزيرة العرب انفسهم .

ويهرع المهاجرون لإقناع الأنصار بأنهم الأحق بذلك ، فهم طليعة الإسلام الأولىٰ وعلى أكتافهم شقت الدعوة طريقها في ظروف بلغت الذروة في عنفها وقسوتها . يعود بعض الأنصار فيطرحون فكرة القيادة الثنائية المشتركة ، فيصرّ المهاجرون علىٰ ضرورة وحدة القيادة ، وأن بمقدور إخوانهم الأنصار أن

يعملوا من خلالها ويعبروا عن طاقاتهم في إطارها . « منا الأمراء ومنكم الوزراء »[١]

ومن أجل ألا يطول النقاش ، وتتفتح ثغرة قد تتسلل منها المشاكل وتنفذ منها الحساسيات ، في وقت كانت وحدة الجماعة فيه تمثل المهمة الأكثر إلحاحاً ، تقدم عمربن الخطاب رضي الله عنه لكي يشير الى المرشّح الذي لابدّ من تحديده في مناقشات كهذه ، وكان أبو بكر رضي الله عنه ولا ريب . فثمة ماضيه العريق في خدمة الدعوة ، ومواقفه الحاسمة في تاريخ كفاحها ، وثمة شهادات الرسول ﷺ وكلماته في رفيقه وصدّيقه ، وثمة تعاطف المسلمين أنفسهم مع أول رجل في الإسلام بعد رسول الله ﷺ .

تمت البيعة الأولى (الخاصة) في السقيفة نفسها ، لكي ما تلبث جموع المسلمين أن تنهال على مسجد الرسول ﷺ مبايعة خليفتها الأول البيعة العامة .

وفي الأوضاع والبيئات الحرة ، لا نلتقي بتجربة انتخابية يجمع فيها الناس كافة على مرشح واحد ، ولا نلتقي بحركة أرقام صمّاء تتجمع بإرادة مسلوبة أو بالقسر والإكراه ، لكي ترسم نسبة المائة بالمائة أو التسع والتسعين وتسع بالعشرة من المائة . لابد أن تكون هناك معارضة ، ولابد أن تتضمن هذه المعارضة قدراً من الرفض لهذا السبب أو ذاك . ولكن الأكثرية الساحقة هي التي أختارت أبا بكر ، فليتسلم الرجل اذن المهمة الصعبة وليتحمل المسؤولية بالأمانة التي عرفت عن أصحاب الرسول عليه الصلاة والسلام .

في مسجد الرسول ﷺ يطرح أبو بكر رضي الله عنه برنامج عمله

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ٥ / ٢٤٧ .

القيادي ، وتصوره العقيدي ، بكلمات قلائل .. قال : « أيها الناس إني قد وُلّيت عليكم ولست بخيركم ، إن أحسنت فأعينوني وإن أسأت فقوّموني الصدق أمانة والكذب خيانة ، والضعيف فيكم قويّ عندي حتىٰ آخذ الحق له ، والقويّ فيكم ضعيف عندي ، حتى آخذ الحق منه إن شاء الله . لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل ولا تشيع الفاحشة في قوم قط إلا عمهم الله بالبلاء . أطيعوني ما أطعت الله ورسوله ، فاذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم .. » .

... إن الخليفة الأول يؤكد هنا علىٰ الحقائق الأساسية التي يجب إعلانها والإلتزام بها ؛ اذاما أريد للقيادة الجديدة أن تواصل السير على الدرب الذي بدأه الرسول ﷺ : فالخليفة رجل من الناس ، واحد من جماهير الأمة ، منحته باختيارها الولاية عليها ، وهو بسبب من ماضيه ومن تقييم النبي ﷺ له، ومن كفاءاته الخاصة، قد نال هذا الشرف؛ لكن هذا لا يعني أنه رجل فوق سائر الناس ، من طينة أخرىٰ غير طينتها ، كما تصوّر الناس أو صوّر لهم في عصور الوثنيات والصنميات ، وظلال الله المدّعاة في الأرض .

إن النبي ﷺ نفسه كان يريد أن ينتزع أيّما ظل لهذه الشبهة في نفوس أصحابه ، كان يقول : (أيّها الناس إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد وتمشي في الأسواق) . وكانت كلمات الله تؤكد هذه الحقيقة المَرة تلو المرَة﴿ **قل إنما أنا بشر مثلكم يوحىٰ إليّ أنما إلهكم إله واحد** ﴾[1]﴿ **ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء** ﴾[2] ﴿ **وإن أدري أقريب**

---

(١) سورة الكهف آية ١١٠

(٢) سورة الأعراف آية ١٨٨ .

أم بعيد ما توعدون ﴾[١] .. ومن يدري فلعل في الأمة التي إختارت أبا بكر رضي الله عنه لقيادتها رجلٌ هو خير من أبي بكر في أمور ، ولكنه أقل قدرة على تحمل المسؤولية : « إني قد وُلّيتُ عليكم ولست بخيركم » ومن ثم ، ومن خلال أول تجربة انتخابية في تاريخنا السياسي ، يحفر الخليفة الأول في أذهان الأمة هذه الحقيقة الخطيرة ، التي تمتد انعكاساتها الى سائر مساحات الحياة وفاعليتها .. إن الرجل المنتخب هو واحد من الناس وليس واحداً فوق الناس ، وأنه ليس ثُمة ظل لله في العالم !!

وهو يطلب من أمته أن تُعينه اذا أحسن الاجتهاد والعمل ، وأن تقوّمهُ إذا أساء ، وهي ضربة أخرى على نفس الطريق الذي أكده في عبارته الأولىٰ . فهو مجرد إنسان قد يخطىء وقد يصيب ، وليست معطياته جميعا قَدَراً منزّهاً عن الانحراف ، وهو يريد أن يكون الحُكْم معادلة متكافئة بين الحاكم والمحكوم ، الطرفان يتحملان مسؤوليتها ويشاركان فيها بالفعل والاجتهاد والنقد والرقابة الدائمة ، وهو بالتالي يريد أن ينميّ الحسّ النقدي ومسؤولية الرقابة في نفوس أبناء أمته ، فليس إلا في فترات الاستلاب السياسي أمة لا تنقد حكامها أو تراقبهم ، ولا تقول (لا) حيث يجب أن تقال . إن الخليفة ها هنا يستبق الأحداث ، ويطلب من أمته أن تمارس حقها من أجل أن تظل على حيويتها الحركية التي علمها إياها الرسول ﷺ ورباها عليها ، فإن أمة لا تنقد ولا تعارض لهي أمة تعاني من السكون وتوشك أن تموت .

وهو رضي الله عنه يؤكد مفهوم العدل الذي جاء به الإسلام ، ويعلن أنه سيحميه من الإنتقاص والعدوان ؛ العدل بمفهومه الشامل الواسع ابتداءً من مسألة الطعام والشراب وانتهاء بموقف الإنسان في العالم .. سيقف خليفة رسول

(١) سورة الأنبياء آية ١٠٩ .

الله ﷺ بكل ما يحمل من قوة لكي يحفظ التوازن المطلوب : فلا أقوياء يرفعون أيديهم بأكثر مما يجب ولا يرتجفون خوفاً وجوعاً ، إنه سيجعل القوي يرتجف إذا ما حدثته نفسه بظلم ، ويأمن عنده الجوعى والخائفون .

وفي عبارتين اخريتين يشير الخليفة إلىٰ الأهمية القصوىٰ للالتزامات الأخلاقية في المجتمع الجديد ، الالتزامات التي تميزه عن سائر المجتمعات الجاهلية وترفعه عليها وهو بدونها يفقد هويته ، ويتنازل باختياره عن الميزة التي منحه إياها انتماؤه للدين الجديد « الصدق أمانة والكذب خيانة » .. و « إنه لا تشيع الفاحشة في قوم قط إلاّ عمّهم الله بالبلاء » .. إن العفن والفساد إذا تسرّبا إلىٰ مجتمع من المجتمعات دون أن تكون هناك إرادة جادة لوقفهما واستئصالهما ، فسوف يتحولان إلىٰ بلاء جارف يكنس في طريقه كل شيء ، وهو لن يعرف حينئذاك الصالح من الطالح لأن (البلاء) ليس عقلاً يعمل في التاريخ ، وإنما عذاب ينصب على التاريخ .

ولم ينسَ أبو بكر رضي الله عنه أن يشير إلىٰ (الجهاد) كالتزام أساسيّ للأمة المسلمة ، ويحذّر من تجميده لأن معنىٰ هذا أن يضربهم الله بالذل .

... إن الجهاد ، كما ورد في عدد كبير من الآيات ـ لا نجد ضرورة للإشارة إليها ـ هو حركة المسلمين الدائمة في العالم لإسقاط القيادات الجاهلية الضالّة ، وإتاحة حرية الاعتقاد للإنسان حيثما كان هذا الإنسان ، بغض النظر عن الزمن والمكان والجنس واللون واللغة والثقافة والانتماء . إنه ـ في الحقيقة ـ مبرر وجود الجماعة الإسلامية في كل زمان ومكان ، ومفتاح دورها في الأرض ، وهدفها العقيدي ومعامل توحدها ، وضامن ديمومتها وتطورها ، والمهمة المركزية لقيادتها ، وبدون هذه الحركة الجهادية يسقط هذا المبرر ويضيع

المفتاح ، وتفقد الجماعة المسلمة قدرتها علىٰ الوحدة والتماسك والاستمرارية والبقاء ، كما تفقد القيادة المسلمة شرطها الأساسي ..

إن الجهاد كهدف إيماني حركي دائم ، أشبه بعامل عقائدي اجتماعي يشدّ أفراد المجتمع الواحد بعضهم إلىٰ بعض ، ويوجّههم صوب بؤرة واحدة ، ويدفعهم إلىٰ تجاوز السكون ، والتحرك الدائم إلىٰ أهدافٍ أبعد فَأبعد ، وهذا ـ بطبيعة الحال ـ يجيء بمثابة ضمان أكبر لوحدة الجماعة المسلمة وتماسكها واستمرارها وصيرورتها التحريرية المبدعة . وعلىٰ العكس ، ما أن تفتر روح الجهاد في نفوس المسلمين ، أفراداً وجماعات ، قيادات وقواعد ، حتىٰ تتفكك عرىٰ وحدتهم وتتعدّد أهدافهم ، وتميل تجربتهم الحركية إلىٰ التباطؤ فالسكون ، وتتساقط مواقعهم الأمامية ، وبدلاً من أن يسددوا ضرباتهم إلىٰ القوىٰ الجاهلية ، ويمتلكوا زمام المبادرة الاستراتيجية في العالم ، إذا بهم يتلقون الضربات من هذه القوىٰ ، ويتراجعون صوب المواقع الدفاعية في الخطوط الخلفية .

فهي الهزيمة ـ إذن ـ علىٰ كل المستويات السياسية والعسكرية والاستراتيجية والعقائدية ، والحضارية في نهاية المطاف . وإننا لننظر إلىٰ تاريخنا : فنرىٰ في هذا الالتزام الكبير معادلة واضحة ، فحيثما سادت روح الجهاد مجتمعاً إسلامياً تمكن من حماية وجوده ، وتعزيز وحدته ، وضمان ديمومته العقائدية وإبداعه الحضاري واتساع ميادين نشاطه في العالم ، وحيثما افتقدت هذه الروح الجهادية ، وطمس عليها في مجتمع آخر ، حيثما فقد مبرر وجوده ، وتمزقت وحدته ، وتباطأت اندفاعيته العقائدية ، واضمحلت منجزاته الحضارية ، تقلص دوره في العالم ، وآل أمره إلىٰ التدهور والسقوط ، وإن تاريخنا المعاصر ليقدم لنا عشرات الأمثلة التطبيقية علىٰ صدق هذه المعادلة .

لقد كان أبو بكر واضح الرؤية عندما قال مخاطباً منتخبيه : « إنه ما ترك قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل » وواضح الرؤية أيضاً عندما جعل سني خلافته جهاداً دائماً في الداخل والخارج ، وعلىٰ كافة المستويات .

ويختتم رضي الله عنه خطابه بتأكيده على أن الطاعة التي يتحتم علىٰ الأمة أن تمارسها إزاءه ، إنما هي مستمدة من طاعته هو شخصياً لله ورسوله ، وأنها تسقط بمجرد أن يخالف هو عن هذه الطاعة .. فالجميع ، في نهاية الأمر ، قيادات وقواعد ، سواءٌ أمام الله ورسوله ، ولن يكتسب فعلهم التاريخي قيمته إلاّ بمدى استمداده من شريعة الله ومعطيات رسوله الكريم .

... لما ألحّ المرضى علىٰ أبي بكر (رض) في وقت كانت زهرة قوات المسلمين تشق طريقها في جبهتَيْ العراق والشام ، والدولتان الكبيرتان : الساسانية والبيزنطية تحشدان جل طاقاتها لسحق هذا التحرك الفتي ، والمجتمع المسلم لم يتجاوز بالكلية مواقع عصبياته وضغوطها القاهرة ، أدرك رضي الله عنه أن مجمل الظروف التاريخية هذه تحتم عليه أن يحسم أمر الخلافة لصالح وحدة المسلمين وأهدافهم التاريخية ، كان بمقدوره ، وهو الذي منحته الأمة ثقتها المستمدة من صدقه العميق ، ومن شهادة الرسول ﷺ ، ومن دوره التاريخي قبل الخلافة وبعدها ، أن يرشح الرجل الذي يطمئن إليه ، لكنه لم يشأ أن يصل إلىٰ هدفه من هذا الطريق القريب وآثر أن يوسّع - بدلاً من ذلك - نطاق مشاوراته إلىٰ أقصىٰ مدىٰ مستطاع ، فبيّن للصحابة الكبار أنه ميّت ولا ريب فأحرىَ بهم أن يتشاوروا ويتخذوا قرارهم النهائي قبل وفاته من أجل حماية وحدتهم واستمرارهم في مهماتهم الأساسية ، وبينّ لهم أنهم في مشاورتهم هذه أحرار من أي التزام تجاه الخليفة السابق ، حتىٰ من بيعته ، قال

لهم : « إنه قد نزل بي ما ترون ولا أظنني إلا ميّت لما بي وقد أطلق الله أيمانكم من بيعتي وحلّ عنكم عقدتي وردّ عليكم أمركم » .. وكان رأي كبار الصحابة أن يتولىٰ الصدّيق بنفسه مهمة الاختيار ، فكأنهم خوّلوه حق الترشيح نيابة عن الأمة بما أنهم ممثلوها المعتمدون .

.... اعتمد الصديق وهو يتحرك لأختيار الرجل المناسب قواعد وميزات أساسية ، كان أبرزها ولا ريب : أن يكون المرشح رجلاً حازماً في غير عنف ، ليناً في غير ضعف ، وكان يجد في عمر بن الخطاب (رض) ـ بعد لأْي البحث والمشاورة ـ ذلك الرجل ، إلا أنه رغم ذلك كله لم يشأ أن يعلن كلمته النهائية قبل أن يجري مزيداً من المشاورات، وقبل أن يطلّع علىٰ رأي المسلمين الموجودين في المدينة في الخليفة الجديد ، ومن ثم خاطبهم قائلاً : « أترضون بمن أستخلف عليكم ؟ فإني والله ما آلوت من جَهد الرأي ولا وَلّيت ذا قرابة وإني قد وَلّيت عمر بن الخطاب فاسمعوا وأطيعوا » ، وكان جواب الناس ـ بما فيهم كبار الصحابة ـ : « سمعنا وأطعنا »[1] وكان بمقدورهم أن يردّوه ، فما أكثر ما قالها المسلمون : لا سمع ولا طاعة ، وعمر نفسه ، بعد أن تولىٰ الخلافة ، كان يدفعهم إلىٰ قولها دفعاً كما سنرىٰ . ولو أنهم قالوها فإنه ليس ثمة ما يمنع أبا بكر من أن يعود إلىٰ المشاورة وتقليب الرأي من جديد للبحث عن رجل آخر يسمعون له ويطيعون .

رفع أبو بكر يديه إلىٰ السماء وقال : « اللهم إني لم أُرد بذلك إلا صلاحهم وخفت عليهم الفتنة فعملت فيهم ما أنت به أعلم فوليت عليهم خيرهم وأتقاهم وأحرصهم » .

---

(١) الطبري : تاريخ ٣ / ٤٢٨ .

وفي كتاب عهده لعمر نقرأ هذه الكلمات التي تنبض تقوى وصدقاً وإحساساً بالمسؤولية : « بسم الله الرحمن الرحيم : هذا ما عهد به أبو بكر خليفة رسول الله ﷺ عند آخر عهده بالدنيا وأول عهده بالآخرة ، الحال التي يؤمن فيها الكافر ويتقي الفاجر ، إني استعملت عليكم عمر بن الخطاب ، فان بَرّ وعدل فذلك علمي به ورأيي فيه ، وإن جار و بدّل فلا علم لي بالغيب والخير أردت ولكل امرىء ما اكتسب ، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون »(١) .

ولن يخطر علىٰ بال أحد أن الصدّيق الذي كان صادقاً مع ربه ونبيه ونفسه في أشد الظروف حلكة وعسراً ، وفي أكثرها سهولة ويسراً ، يمكن أن يتنازل عن صدقه في أخطر مسألة في حياة المسلمين ، وهو ذاهب بعد لحظات أو ساعات أو أيام للقاء الله الذي لايعزب عنه مثقال ذرة في السماوات والأرض ، يتنازل عن صدقه عند آخر عهده بالدنيا وأول عهده بالآخرة ، الحال التي يؤمن فيها الكافر ويتقي الفاجر .

وإننا لنلمح الحسّ الشوري يغطى كافة الخطوات التي قطعها الرجل من أجل اختيار مرشحه للخلافة ؛ وهو يطلب من كبار الصحابة : أن يتشاوروا في الأمر مُطلِقاً أَيمانهم من بيعته ، رادّاً عليهم أمرهم ، وهم يخوِّلونَهُ حق الاختيار ، وهو يدرس وينقّب واضعاً أشد المقاييس عدلاً وموضوعية في المرشح الذي سيتولىٰ الخلافة ، وهو يعرض اختياره علىٰ جمهور الأمة وكبار صحابته ، ويتلقىٰ منهم الموافقة ، ثم وهو يؤكد حرصه وخشيته وإحساسه بالمسؤولية خلال اختياره عمر بن الخطاب (رض) ، طارحاً تحفظه إزاء ما

---

(١) عن تفاصيل أنتخاب عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنظر : الطبري : تاريخ ٣ / ٤٢٨ - ٤٣٣ وفصل (حول تداول السلطة في العصر الراشدي من كتاب (في التاريخ الإسلامي) للمؤلف .

يمكن أن يحدث في المستقبل مما هو في طيات الغيب التي لا يعلمها إلا الله ، منددا بصراحة بالغة بهذا الذي يمكن أن يحدث .

.. وأخيراً فإن الرجل الذي رشحه لا يمت إليه بقرابة ولا عصبية من قريب أو بعيد ، وفضلاً عن هذا وذاك ، فإن عمر لم يكن بالرجل العادي الذي يكون أمر اختياره مسألة غير متوقعة بالنسبة للمسلمين ، علىٰ العكس ، فإن اختياره جاء مصداقاً لمتطلبات اللحظات الراهنة ، وكأنه والتاريخ كانا علىٰ ميعاد ، الأمر الذي يفسّر لنا ترحيب المسلمين بمجيئه الذي كان متوقعاً ، بل محسوباً !!.

كانت هنالك ـ أيضاً ـ بيعتان خاصة وعامة ، وكانت هنالك خطب وكلمات هي أشبه بمؤشرات عمل عبر سني المسؤولية ، قال : « إنما مثل العربي مثل جمل أنف (أي حديث عهد بالولادة) اتبع قائده ، فلينظر قائده حيث يقوده ، أما أنا فورب الكعبة لأحملنهم علىٰ الطريق .. » وقال : « ولست أدع أحداً يظلم أحداً حتى أضع خدّه علىٰ الأرض وأضع قدمي علىٰ الخدّ الآخر ، حتىٰ يذعن للحق ، ثم إني بعد شدّتي تلك أضع خدّي علىٰ الأرض لأهل العفاف وأهل الكفاف » .

والحديث عن مواقف عمر وبرامجه الفذة يطول ، ولكننا نقف ها هنا قليلاً ، ونحن نتحدث عن المسألة الانتخابية ، عند موقفه من (حرية المعارضة) التي سهر علىٰ توفير مناخها الملائم ، وبينما قطعت فيها أشد الجماعات (ديمقراطية) خطوة واحدة ، قطع هو فيها خطوتين ، إذ إنه لم يكتف باتاحة المجال الواسع لأبناء أمته أن يعترضوا ، وإنما حثّهم حثّاً ، ودفعهم دفعاً إلىٰ الإعتراض ، وكان يُهمّه ويشغل باله أن تفقد أمته أحساسها العميق بالحرية ،

وألاّ تتشرب دماؤها أحاسيس النقد والرفض ، حيث يتحتم أن يُنقد عمل ما ، ويُرفض إذا اقتضى الأمر .

خطب يوماً على منبر مسجد رسول الله ﷺ في المدينة ، فقال : « يامعشر المسلمين ، ماذا تقولون لو ملت برأسي إلى الدنيا هكذا ؟ (وأمال برأسه) فقام إليه رجل فقال : أجل ، كنا نقول بالسيف هكذا (وأشار إلى القطع) . فقال عمر : أإياي تعني بقولك ؟ قال الرجل : نعم إياك أعني بقولي : فقال عمر : الحمد لله الذي جعل في رعيتي من يقوّمني إذا اعوججت » . وقال حذيفة رضي الله عنه : دخلت على عمر يوماً فرأيته مهموماً حزيناً ، فقلت له : ما يُهّمك ياأمير المؤمنين ؟ قال : إني أخاف أن اقع في منكر فلا ينهاني أحد منكم تعظيماً . قال حذيفة : والله لو رأيناك خرجت عن الحق لنهيناك . فسرّ عمر وقال : الحمد لله الذي جعل لي أصحاباً يقوّمونني إذا اعوججت .. وعن الحسن بن علي رضي الله عنهما قال : كان بين عمر وبين رجل كلام في شيء . فقال الرجل : اتق الله ، فقال أحد الجالسين : أتقول لأمير المؤمنين اتق الله ؟ فرد عمر : دعه فليقلها لي ، فلا خير فيكم إذا لم تقولوها ولا خير فينا إذا لم نقبلها .

... أكثر من هذا ، إنه كان يريد ـ كما فعل الرسول والخليفة الأول من قبله ـ أن يقول للناس : إنه سيظل واحداً منهم ، سيظل معهم ، ولن يفصله عنهم منصب الخلافة مهما عظم واتسع سلطانه . إنه يدرك ـ كما أدرك الرسول وأبو بكر من قبل ـ أن فتنة الناس بقادتها خطيئة كبيرة ، تجردهم من أكثر الأسلحة أهمية في قدرة الأمة على مواصلة نموّها التاريخي وحيويتها ورشدها سلاح التعامل المتكافيء ، والاختيار ، والرفض ، وإلا فإن الأفتتان يُحيلهم أدوات عمياء . هذا هو واحد من الأسباب التي دفعت عمر إلى عزل خالد

والمثنىٰ معاً وهما في قمة انتصاراتها ، وهذا هو الذي يدفعه وهو في قمة السلطة إلىٰ أن ينادي يوماً : الصلاة جامعة ، فلما اجتمع الناس صعد المنبر واثنىٰ على الله ثم قال : « أيّها الناس لقد رأيتُني أرعىٰ لخالات لي من بني مخزوم فكنت استعذب لهن الماء فيُقْبضْني القبضة من التمر أو الزبيب » ثم نزل . فقال له عبد الرحمن بن عوف : ما أردت بهذا ياأمير المؤمنين ؟ أجاب : ويحك يابن عوف ، لقد خلوت إلىٰ نفسي فقالت لي : أنت أمير المؤمنين وليس بينك وبين الله أحد فمن ذا أفضل منك ؟ فأردت أن أعرّفها قَدْرها !!

إنه يطارد شبح (الافتتان) في نفسه ، وهو الخليفة القمة ، أمام جماهير الناس لكي تعرف من هو ابن الخطاب فلا تفتنّ به ، ولكي يتحرر الطرفان ، الحاكم والمحكوم ، من كل ما من شأنه أن يقيم بينها سداً أو جداراً ..

في انتخاب عثمان (رض) ، واصلت التجربة الانتخابية التزامها بالبعد الشوري ، وازدادت نضجاً ونمواً من خلال التحديات الصعبة التي طرحها الموقف التاريخي ..

لما طُعن عمر بن الخطاب (رض) طعناته القاتلة بخنجر أبي لؤلؤة الفارسي ، وأدرك المسلمون أنه ميّت لا محالة ، طلبوا إليه أن يعهد بالخلافة لأحد ، أسوة بما فعله الصدّيق من قبله ، وتجاوزوا لكل ما من شأنه أن يلحق بوحدة المسلمين وحركتهم الجهادية الواسعة الأذىٰ والتفكك أو السكون والتوقف . لكنه تردّد في الأمر ، وظل فترة من الوقت يتأرجح بين إحدىٰ اثنتين : أن يختار هو بموافقة الصحابة ، أو أن يترك المسلمين يختارون . وقد عبّر عن موقفه هذا بعبارته المشهورة : « إن أَستخلف فقد استخلف من هو خير مني - يعني أبا بكر (رض) - وإن أترك فقد ترك من هو خير مني - يعني الرسول ﷺ ولن يضيع الله دينه » .

وعندما عرض عليه (أحدهم) أن يرشح ابنه عبد الله الذي اشتهر بعلمه وتقواه ، رفض وقال بغضب : « قاتلك الله ، والله ما أردت الله بهذا !! لا إرَبَ لنا في أموركم ، وما حمدتها فأرغب فيها لأحد من أهلي . إن كانت خيراً فقد أصبنا منه ، وإن كانت شراً فبحسب آل عمر أن يُحاسب منهم رجل واحد ويُسأل ـ أمام الله ـ عن أمر أمة محمد ﷺ . أما لقد جهدت نفسي وحرمت أهلي ، وإن نجوت كفافاً ، لا وزر ولا أجر ، إني لسعيد »[1] .

ازدادت خشية المسلمين من أن يتوفى الخليفة قبل أن يستقر الاختيار على أحد يليه في الخلافة ، فازدادوا إلحاحاً عليه ، وحينذاك ، وهو يعاني آلام الجراح القاتلة لمعت في ذهنه (صيغة) جديدة للأختيار ، وسط بين الموقفين السابقين ، تقوم على حصر الخلافة في واحد من أولئك الرجال الذين يمثلون طليعة الصحابة ورجالات الدعوة الروّاد ، فمن توفي الرسول ﷺ وهو عنهم راض ، وممن بقوا على قيد الحياة . وكان عددهم ـ يومذاك ـ ستة هم : عثمان ، وعلي ، وطلحة ، والزبير ، وعبد الرحمن ، وسعد ، رضي الله عنهم .

أعلمهم عمر (رض) : أنه بعد دراسته للمسألة ، لم يجد أمر الخلافة يعدو أحدهم بما أنهم ممثلو الأمة وقادتها وروّادها . وطلب منهم أن يجتمعوا ويتشاوروا لاختيار واحد منهم ، وألاّ يسمحوا للنقاش أن يطول ويتشعب ، لئلا يقود إلى الخلاف والشحناء ، في وقت كانت الدولة الراشدة في أمسّ الحاجة فيه إلى اليد القديرة التي تعرف كيف تحمل المسؤولية ، وتمضي بالأمانة خطوات أخرى على الطريق الطويل ..

وتجاوزاً لهذه الاحتمالات وضع ابن الخطاب (رض) برنامجاً زمنياً محدداً

---

(١) الطبري : تاريخ ٤ / ٢٢٨ .

أَمَدَهُ ثلاثة أيام يتحتم عليهم خلالها أن يتفقوا علىٰ المرشح الجديد : « ولا يأتينّ اليوم الرابع - قال الخليفة - إلاّ وعليكم أميرٌ منكم » . وطلب من صهيب : أن يصلي بالناس خلال هذه الفترة ، لأن اختيار أي من الستة أهل الشورىٰ إماماً ، يعني ترجيحه في العملية الانتخابية . « ويحضر عبد الله بن عمر مشيراً ولا شيء له في الأمر » ، قالها الخليفة مرتين ، كيلا يتجاوز دور ابنه حدود المراقبة فحسب .. كما طلب من المقداد بن الأسود : أن يشرف على المشاورات ريثما يتم الانتخاب . ومن أجل مزيد من الحيطة علىٰ وحدة الجماعة التي هي أثمن شيء ، الوحدة التي تتجاوز كل ما هو فردي في حياة الأمة ، طلب من المقداد أن يستخدم السيف إذا طال النقاش وتجاوز أمده المحدّد ، وأصرّت الأقلية على عدم الأخذ برأي الأكثرية ، وهو موقف لا يعدو حدود الحيطة والحذر ، ولا يمكن أن يتجاوز ذلك إلىٰ التنفيذ الفعلي ، لاستحالة وقوع ذلك الاحتمال البعيد .

بعد مشاورات متشعبة بين الرجال الخمسة ، إذ كان طلحة غائباً في تجارة له إلى بلاد الشام ، مشاورات تسلل من خلالها (إخباريو) عصر التدوين العباسي ، فنفثوا فيها من رواياتهم الموضوعة ما نفثوا ، وصوروا لنا الموقف التاريخي ذاك ، كما لو كان تهالكاً بين الصحابة الكرام علىٰ السلطة ، واستماتة في سبيل مغانمها الموهومة ، التي ما لمسها أحد في تجربة أيٍّ من الخليفتين السابقين .. وبعد مشاورات متشعبة طرح عليهم عبد الرحمن بن عوف رأيه : أن يتنازل عن حقه في الترشيح لمنصب الخلافة ، وأن يخوّلوه ، مقابل هذا ، الحق في انتخاب أحدهم خليفة للمسلمين .

لم يعترض أحد .. كلهم وافق علىٰ العرض ، وكان بمقدور أي منهم أن يعترض فيجد ابن عوف نفسه مرغماً علىٰ سحب مشروعه .. لا ريب أنهم

أدركوا إخلاص الرجل ورغبته في الوصول إلىٰ المرشح المطلوب قبل انقضاء المشوار الزمني الذي طرحه ابن الخطاب (رض) .

ولقد تبين هذا الإخلاص من خلال الساعات الطويلة التي قضاها ابن عوف يستطلع آراء المسلمين في المدينة ، صحابة وأناساً عاديين ، رجالاً ونساء ، ينهالون عليه أفواجاً ، مما يدل علىٰ مدىٰ وعيهم السياسي ، أو يطرق هو عليهم الأبواب ، حرصاً منه علىٰ أن يأخذ آراء أكبر جماعة منهم . وفي فجر اليوم الأخير المحدّد لإعلان النتيجة اجتمع ابن عوف برجال الشورىٰ ، وأرسل إلىٰ من كان بالمدينة من المهاجرين والأنصار وأمراء الأجناد الذين كانوا قد قدموا إلىٰ الحجاز لأداء الحج ، وأعلمهم أن غالبية الآراء قد اتجهت إلىٰ استخلاف واحد من اثنين : عثمان أو علي (رض) . وكان علىٰ عبد الرحمن بن عوف - بعد ذلك - أن يعتمد مقياساً اجتهادياً للترجيح كي لا يبقىٰ الأمر معلقاً .. فكان أن طرح فكرة الالتزام بسيرة الشيخين (أبي بكر وعمر رضي الله عنهما) ، فضلاً عن العمل بكتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام . أما عثمان فقد أعلن قبوله لهذا الالتزام ، وهو يرىٰ بأم عينيه سيرة الشيخين وقد حفظت وحدة المسلمين ، وأدالت من الفرس والروم ونجحت نجاحاً باهراً في تنفيذ برامج الاسلام علىٰ كافة الجبهات .. وأما علي فقد قاده اجتهاده إلىٰ القول « أعمل بكتاب الله وسنة رسوله وأجتهد رأيي - فيما عدا ذلك - ولا آلو » .. وهو - رضي الله عنه - ينظر فيرىٰ أنه يقف ، في رفقته للرسول ﷺ وقدراته الفقهية ، علىٰ قدم المساواة مع الشيخين (رض) ، وأن تطور الظروف التاريخية وتغاير التجربة البيئية قد تلجئه إلىٰ طرح حلول أخرىٰ للمشاكل المستجدة .

اجتهد كل من الرجلين وقاده اجتهاده إلىٰ (موقف) .. ووجد عبد الرحمن بن عوف بعد تلك الجهود المكثفة التي بذلها ، وبعد أن آذنت شمس اليوم الرابع بالشروق ، أن يحسم الأمر ، فأشار بأن اختياره قد وقع علىٰ عثمان ، وتقدم إليه قائلاً : أبايعك علىٰ كتاب الله وسنة رسوله والخليفتين من بعده . ومن ثم تقدم المهاجرون والأنصار وأمراء الأجناد ليبايعوا خليفتهم الجديد البيعة الخاصة التي أعقبتها - كما هو متبع - بيعة عامة[1] .

صعد عثمان بن عفان (رض) إلىٰ المنبر ، وثقل المسؤولية يرتسم علىٰ ملامح وجهه وألقىٰ كلمة جاء فيها : « .. إنكم في بقية أعمار ، فبادروا آجالكم بخير ما تقدرون عليه .. ألا وإن الدنيا طويت علىٰ الغرور فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور .. ارموا بالدنيا حيث رمىٰ الله بها .. » .

حتى إذا ما وصلنا خلافة علي (كرم الله وجهه) وجدنا أنفسنا أمام صيغة انتخابية (مفتوحة) تعود بنا ثانية إلى تلك التي تم بموجبها انتخاب الخليفة الأول (رض) ، مع ملاحظة التغيّر الواسع الذي طرأ علىٰ الظروف التاريخية ، خاصة بعد مقتل عثمان (رض) ، وفقدان النظام في المدينة طيلة الأيام الخمسة التي أعقبت ذلك .. وسيطرة الثائرين علىٰ مقدرات الأمور في المدينة ، وتهرّب المرشحين وعلىٰ رأسهم علي نفسه (رض) من تدافع الناس نحوهم متوسّلين إليهم قبول المهمة الصعبة .. حتى لقد كان علي (رض) يلوذ ببساتين المدينة ، كما حاول إقناع طلحة بن عبيد الله يتولى الخلافة لكن طلحة (رض) رفض معتقداً أن علياً (رض) أجدر بها منه .

---

(١) أنظر كتاب فضائل الصحابة من صحيح البخاري ٤ / ٢٠٤ - ٢٠٧ وابن تيمية : منهاج السنة ٣ / ١٦٨ - ١٧٢ ، ٢٣٣ - ٢٣٤ وكتاب في التاريخ الاسلامي للمؤلف فصل (تداول السلطة) .

وأخيراً لم يجد علي (رض) إزاء إلحاح المسلمين بُدّاً من قبول المهمة كي لا تتسع دائرة الفتنة ، وتتعرض الأمة لمزيد من المخاطر والانشقاقات .. وعندما أقبل عليه الناس ليبايعونه ، أعلمهم أن البيعة يجب أن تبدأ أولاً بطلائع المسلمين الأولين من المهاجرين والأنصار ، ثم يليهم سائر الناس . وقد أعرب (رضي) عن رؤيته الشورية العميقة عندما خاطب منتخبيه قائلاً : « أيّها الناس إن هذا أمركم ليس لأحد فيه حق إلاّ من أمّرتم ، إن شئتم قعدت لكم ، وإلاّ فلا أجد علىٰ أحد »[1] !! .

... وهكذا يتبدىٰ لنا ونحن نتحرك باتجاه آخر رجل في عصر الراشدين ، احتفاظ التجربة الأنتخابية بنَفَسها الشوري واستمدادها من مشيئة الجماهير .

... بويع علي (رض) البيعة الخاصة من قِبَل كبار الصحابة مهاجرين وأنصاراً ، وما لبثت أن ثنّيت بالبيعة العامة أسوة بما شهدته انتخابات الراشدين من قبله . وكالراشدين من قبله ، ألقىٰ (كرم الله وجهه) إثر مبايعته كلمات عبر فيها عن برنامج العمل الذي سيلتزمه ، جاء فيها : « .. إن الله عز وجل أنزل كتاباً هادياً بيّن فيه الخير والشر ، فخذوا بالخير ودعوا الشر .. واتقوا الله في عباده وبلاده . إنكم مسؤولون حتىٰ عن السباع والبهائم .. « واذكروا اذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض » .

... وفي آخر أيامه ، عندما طعن تلك الطعنات الغادرة ، علىٰ يد عبد الرحمن بن الملجم المرادي الخارجي ، وأشرف علىٰ الموت ، توسّل إليه حشد من أصحابه أن يعهد بالخلافة من بعده لأحد ابنائه الذين امتازوا ـ كأبيهم

---

(١) الطبري : تاريخ ٤ / ٤٣٥ .

(رضي) - بالتزامهم الدقيق وفقههم العميق وشخصياتهم المحبّبة لدىٰ جماهير المسلمين - فكان جوابه : « لا آمركم ولا أنهاكم . أنتم أبصر » . وفي رواية ثانية تأكيد آخر علىٰ عمق الحسّ الشوري لدىٰ علي (رض) .. قال : « بل أترككم كما ترككم رسول الله ﷺ ، فلعل الله يجمعكم - بعدي - علىٰ خيركم ، كما جمعكم بعد نبيكم علىٰ خيركم » يعني أبا بكر الصديق (رض)[1] ..

ونحن نمضي إلىٰ نهاية عرضنا السريع هذا لابدّ أن نتذكر الدور الكبير الذي لعبه كتاب الله ، وتعاليم رسوله ﷺ وممارساته في تكوين هذا الوعي السياسي الذي أعان طلائع المسلمين : مهاجرين وأنصاراً ، علىٰ مجابهة تحديات السلطة وطرائق الحكم ، وفي غرس الحسّ الشوري في عقولهم ونفوسهم .

لقد أكدّ كتاب الله أكثر من مرة فكرة الشورىٰ كأسلوب للتوصل إلى القرارات الخطيرة التي تهم الجماعة المسلمة ، ومارسها الرسول ﷺ خلال قيادته للدولة الإسلامية الناشئة أكثر من عشر سنين ، في عديد من المواقف الحاسمة .. وها هم أصحابه وتلامذته يواصلون الطريق .. لم يعهد أحد منهم بالمهمة لابنٍ أو أخٍ أو قريب ، ولم يخطر بباله قط أن يقف بمواجهة إجماع المسلمين ومشيئتهم ..

كانت الأشكال والصيغ (الأجرائية) تتغير وتتطور وتأخذ (أوضاعاً) جديدة ، وفقاً لمقتضيات الظروف التاريخية عامة ، والبيئية خاصة .. أما الروح الشورية فقد بقيت محافظة على عمقها وأصالتها وديمومتها ...

---

(١) مسند الأمام أحمد ١ / ١٣٠ ، ١٥٦ ، ابن كثير : البداية والنهاية ٥ / ٢٥٠ - ٢٥١ ، ٧ / ٣٢٣ ، ابن العربي : العواصم هامش ١ ص ١٩٨ - ١٩٩ .

إن هذا (التغيّر) في الشكل و (الوحدة) في الجوهر ، لهو سمة أساسية من سمات نظم الإسلام وشرائعه ، بل هو ميزة عميقة من ميزات فلسفته تجاه الكون والحيـاة والإنسـان .. ومن خـلال هـذه الثنـائيـة الـدايـناميكيـة المرنـة ، كان بمقدور الإسلام دوماً أن يعالج شؤون الحيـاة المختلفـة ، وأن يغطي متطلبـاتهـا على كافة الجبهات .

☆ ☆ ☆

(٤)

في السنين الأخيرة من خلافة عثمان (رض) ، الرئيس الثالث للدولة الراشدة ، حدثت تلك الفتنة الخطيرة التي انتهت بقتله ، وتمخضت عن انشقاق محزن في صفوف الجماعة الإسلامية . ولم تكن الفتنة وليدة ساعة من زمان ، كما لم تكن سياسات عثمان الإدارية والمالية هي السبب الوحيد في إظهارها ، كما يتصور حشد كبير من المؤرخين ، الأمر الذي جعل من سياسات عثمان هذه مشجباً علقت عليه كافة المعطيات المحزنة للفتنة . إنما هناك تيارات شتى ممتدة في الزمن وشديدة التعقيد ، ومن خلال نظرة شمولية ترفض التجزئة والتقطيع ، كما تتجاوز التفسير (الواحدي) للتاريخ ، يستطيع الإنسان أن يتَبيّن ملامح وسمات هذه التيارات :

هنالك - أولا - العصبية القبلية التي جاهدها الإسلام جهاداً مريراً دون أن يستطيع القضاء عليها بالكلية ، وماذا تفعل عشرون أو ثلاثون سنة تجاه تقاليد عشرين أو ثلاثين قرناً ؟ لقد إعتاد العرب قبل إسلامهم - كما رأينا - حياةً تقوم على الانتماء القبلي الذي يرفض أي نوع من التوحيد السياسي ، أو الخضوع لسلطة منظمة مركزية واحدة ، كما اعتادوا في علاقاتهم الإجتماعية والعامة نوعاً من الحرية السالبة التي تصل حدّ التسيّب من أي التزام خلقي ، والتفلّت من كل ما من شأنه أن يضبط حركتهم الاجتماعية بقانون أو دستور . ولقد عبّرت قطاعات كبيرة من العرب الذين لم يتغلغل الإيمان في قلوبهم عن نزعاتها القبلية في إطار النفاق في عهد الرسول ﷺ ، وفي إطار الانشقاق عن الإسلام في أعقاب وفاته ﷺ ، ثم ها هم أولاء يعودون - وقد سدّت عليهم الطرق - ليعبّروا عن نزعاتهم في إطار الإسلام نفسه ، متخذين الثورة ضد عثمان سبيلاً لتدمير السلطة المركزية ، وتفتيت الوحدة التي صنعها

الرّواد الأوائل بدمـائهم وعرقهم .. إن كثيراً من عرب الأمصـار أسهموا في هـذا الحدث ، وبمجرد إلقاء نظرة على قوائم زعمائهم ، يتبين لنـا حجم الـدور الـذي لعبه زعماء القبائل في الفتنـة ، وأكثرهم ممن لم يكن لـه دور يـذكر أيـام محنـة الحركة الإسلامية وعذابها . ولقد وصف عثمان نفسه المنتمين إلى الفتنـة من عرب الأمصار ، بكلمات ذات دلالة واضحة في هذا المجال وقال عنهم أنهم : « كالنعام الذين يتبعون أول ناعق » . وقال : « آفة هذه الأمة عيّابون طعّانون يُرُونكم ما تحبون ويَسْتُرون عنكم ما تكرهون .. أحب مواردهم إليهم البعير ، لا يَردِون إلاّ عكراً ، لا يقـوم لهم رائـد وقـد أعيتهم الأمـور .. » وقـال علي كرم الله وجهه : « إن الله أنعم على الأمة بالجماعة ، بالخليفـة بعـد رسول الله ـ أي بـأبي بكر ـ ثم الذي يليـه ـ عمر ـ ثم الـذي يليـه ـ عثمان ـ ثم حـدث هـذا الحـدث ـ الفتنـة ـ الـذي جرّه على هـذه الأمـة أقـوامٌ طلبـوا هـذه الـدنيـا ، وأرادوا ردّ الإسلام والأشياء على أدبارها .. »[١] .

وهنالك ـ ثـانيـا ـ: تيـار التحولات الاجتماعيـة ، التي أحـدثتهـا حركـة الفتوح وما ساقت إلى ابناء الأمة الإسلامية وحكومتها من أموال تفوق الحصر ، دفعت هذه الحكومة إلى تقرير نظام الإقطاع ، وهو تجربـة رائـدة من تجـارب العدل الاجتماعي والتوزيع العادل للمـال . وقـد أنفق كثير من الـذين تـدفقت الأموال إلى جيوبهم ، أنفقوا هـذه الأموال في حـاجـات استهـلاكيـة بينمـا سعى آخرون إلى استثمارها وتنميتها ، الأمر الذي أحدث نوعـاً من الفروق في الملكيـة بين المجمـوعتين ، وقـاد أحـد الصحـابـة الكرام : أبـو ذر الغفـاري (رض) إلى القيام بحركته الاجتماعية المعروفة الداعيـة إلى تَجَـرّدِ المـالكين من أملاكهم لكي يستوي الجميع .

---

(١) أنظر الطبري : تاريخ ٥ / ١٩٤ .

وقد اختلفت وجهات النظر تجاه حركة أبي ذر ، ولن نعرض لها هنا لأنها تجرنا إلى أبعاد فقهية محضة ، إلاّ أن الذي يهمنا تاريخياً : هو أن عدداً من مؤرخينا القدماء اعتمد هذه الحركة للطعن على عثمان (رض) ، وجاء المؤرخون المحدثون فوسّعوا الشقة ، وتلقوا روايات موضوعة في العصر العباسي دونما نقد أو تمحيص . فمن جهة صوروا عثماناً كما لو كان إقطاعياً يملك الكثير الذي يفوق الحصر ، ومن جهة أخرى صوروا العلاقة بين الرجلين كما لو كانت علاقة قهر واستبداد وعنف وأذى ، انتهت بنفي أبي ذر إلى الربذة في أعماق الصحراء . لكننا لو تمعنا في معطيات التاريخ ، فإننا سنجد مجموعة أخرىٰ من الروايات ، تقدم لنا صورة معاكسة تماماً ، فلم يكن عثمان في أخريات خلافته ، يملك غير راحلتين اثنتين ، كما أعلن هو نفسه ذلك أمام حشد من مسلمي المدينة ، فأقروه . وكان يُرى نائماً في مسجد المدينة ويقوم وآثار الحصىٰ على جنبه ، فيقول الناس : (هذا عثمان بن عفان ، هذا أمير المؤمنين !!) وقال شاهد عيان : رأيت عثمان يخطب في المدينة وعليه قميص مرقوع ثمنه أربعة دراهم . وقال آخر ، وهو الحسن البصري : « كان عثمان يُطعم طعام الإمارة ويأكل الخل والزيت » .. وبصدد علاقته بأبي ذر نستطيع أن نقرأ هذه الروايات ـ كنماذج فحسب ـ تدين موقف المؤرخين المعاصرين وتحيزهم . جاء في الطبري « كتب عثمان إلى معاوية أن وجِّه أبا ذر إلىٰ المدينة وابعث معه دليلاً ، وزوّده وارفق به » وجاء « قال ابن مسعود : قدمنا مكة وأخبرنا عثمان خبَر وفاة أبي ذر فقال : يرحم الله أبا ذر ويغفر له نزوله الربذة . ولما صدر خرج فأخذ طريق الربذة فضم عياله إلى عياله .. »[1] وقال : « ولما توجه أبو ذر إلى الربذة أقطعهُ عثمان قطيعاً من الغنم وصرمة من

---

(١) الطبري ٤ / ٣٠٩ .

الإبل وأرسل إليه أن يعاود المدينة حتى لا يرتد أعرابياً » وقال ابن أبي بكر في التمهيد والبيان : « لم يكن ذلك نفياً إنما كان ذلك تخييراً له وقد خيّره عثمان فاختار نزول الربذة » أمّا الربذة نفسها فلم تكن ذلك الموقع المنقطع في عرض الصحراء ، وإنما يذكر الجغرافيون أنها كانت مكاناً طيباً يكثر فيه الشجر والماء .. فهو إذن : تجميد النشاط بالاتفاق ، وليس نفياً[١] .

هنالك ـ ثالثا ـ: التيار اليهودي الذي يسعى بعض المؤرخين المعاصرين إلى نفيه لأنه جاء على لسان مؤرخينا القدماء ، متمثلاً برجل واحد هو عبد الله بن سبأ ، وتذرعوا بالقول : بأن رجلاً واحداً لا يمكن أن يصنع هذا الذي شهدته الأمة في عهد عثمان ، فهو إذن أقرب إلى الأسطورة منه إلى الواقع التاريخي ، لكننا ـ ونحن نردّ عليهم ـ ننكر في الوقت نفسه موقف مؤرخينا القدماء الذين حصروا الدور اليهودي في أحداث الفتنة برجل واحد ، ونسوا أن ابن سبأ يمكن أن يمثل ظاهرة خطيرة في تاريخنا .. ذلك الحشد الكبير من اليهود الذين انتموا للإسلام ظاهرياً ، وتسمّوا بأسماء إسلامية ، وظلوا يعملون ـ من وراء ذلك ـ على تخريب المجتمع الإسلامي من الداخل ورفدوا إسناد كل عناصر هدمه وتفكيكه .. وجائز إذن : أن يكون هناك عشرات بل مئات أمثال ابن سبأ لعبوا دورهم في الفتنة دون أن يكشفوا عن حقيقتهم ، كما حدث بالنسبة لابن سبأ .

...لقد أراد ابن سبأ أن يتكيء على شيء ، وهو ينفخ في نار الفتنة ، فأعلن تأييده لعلي (رض) وحقه في الخلافة ، وطرح ـ لأول مرة في تاريخنا ـ نظرية الوصاية المقدسة ذات الأصل اليهودي ، قال : « كان فيما

---

(١) أنظر ابن خلدون : تاريخ ٢ / ١٣٩ .

مضىٰ ألف نبي ولكل نبي وصي ، وأن علياً وصيُّ محمد » وقال:« محمد خاتم الأنبياء وعليٌّ خاتم الأوصياء » وقال : « إن عثمان أخذ الخلافة بغير حق ، وهناك عليٌّ وصيُّ رسول اللهِ فانهضوا فحرّكوه ، وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تستميلوا الناس »[١] .. وبعد فترة قليلة من الزمن انبثقت فرقة مذهبية نسبت إليه فسميت (السبئية) ، ولا يمكن أن تبرز هذه الفرقة المؤكدةُ تاريخياً من العدم !!

وهنالك - أخيراً العامل الإداري . لقد قيل بأن عثمان ارتكب خطأ فادحاً بتقريب أقربائه وتوزيع مناصب الدولة الأساسية عليهم ، وهذا صحيح إلى حدّ ما ، لكننا نقرأ القائمة الإدارية التي يذكرها الطبري في احداث عام ٣٥ هـ ، والتي تتضمن ما يقرب من الثلاثين رجلاً فنجد أن ستة منهم فقط من أقرباء عثمان ، وان خمسة وعشرين لا تربطهم به أية صلة من نسب[٢] .

ومهما يكن من أمر ، فإن عثمان قد اعتمد في سياساته جميعاً نوعاً من اللين والسماحة جاوز الحدّ المطلوب ، وفتح الطريق أمام قادة الفتنة لتنفيذ أهدافهم . وهو نفسه يقول لهؤلاء إنهم كانوا علىٰ استعداد لإشعال الفتنة زمن عمر رضي الله عنه ، نفسه ، : « ولكنه - أي عمر - وطأكم برجله وضربكم بيده وقمعكم بلسانه ، فدنتم له علىٰ ما أحببتم وكرهتم . ولِنْتُ لكم ، وأوطأتكم كنفي ، وكففت عنكم يدي ولساني فاجترأتم عليَّ .. واللهِ ما قَصّرت عن بلوغ ما بلغ من كان قبلي ولم تكونوا تختلفون عليه » . وقد روىٰ سالم أن أباه عبد الله بن عمر قال : « لقد عتبوا على عثمان أشياءً لو فعلها عمر ما عتبوا عليه »[٣] .

---

(١) محب الدين الخطيب : حملة رسالة الإسلام الاوّلون ص ٢٢ .

(٢) الطبري : تاريخ ٤ / ٤٢١ - ٤٢٢ .

(٣) ابن العربي : العواصم من القواصم ، تحقيق محب الدين الخطيب ، هامش ١ ص ٥٣ - ٥٤ .

وحتىٰ في الأيام الأخيرة ، حيث راح حصار الثائرين يشدد قبضته علىٰ دار عثمان ، رفض الخليفة استخدام العنف لكسر الحصار وإخراج رجال القبائل من المدينة ، لقد عرض عليه قادة المهاجرين والأنصار أن يأذن لهم برفع السلاح للقضاء علىٰ الفتنة : المغيرة بن شعبة ، زيد بن ثابت الأنصاري أبو هريرة ، الحسن والحسين وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير بن العوام ، وبنو عوف الأنصاريين فكان جوابه دوماً : « إن أعظمكم عني غناء رجل كف يده وسلاحه » أناشدكم الله وأسألكم به ألا تراق بسببي قطرة دم » (عزمت على أحد كانت لي عليه طاعة ألاّ يقاتل » « أيسركم أن تقتلوا الناس جميعاً وأنا منهم ؟ فإنكم إن قتلتم رجلاً واحداً فكأنما قتلتم الناس جميعاً » كان عثمان رضي الله عنه مستعداً لأن يُقتل علىٰ أن يمارس أحد حلّين : أن يُسْفِك الدماء الإسلامية ، أو أن يُهدِد كرامة الخلافة فيتنازل ببساطة عنها[1] .

...لنا أن نتوقع ، كيف أن مقتل الخليفة أواخر عام ٣٥ هـ بالطريقة المحزنة التي قتل بها ، سيولّد ردود أفعال عنيفة ، ليس من السهولة بمكان تقدير أبعادها ؟! لقد قبل علي (رض) الخلافة على مضض تحملاً للمسؤولية وخوفاً من أن يتسّع الخرق ، وانضوىٰ إلى معسكره مرغمين جلّ الذين اشتركوا في الفتنة ضد عثمان وقتلته ، فما كان من عدد من كبار الصحابة ـ فيهم طلحة بن عبيد الله ، الزبير بن العوام وعائشة زوجة الرسول ﷺ ـ إلاّ أن تحركوا يؤيدهم حشد كبير من المسلمين يطالبون بفرز سريع لقتلة عثمان وقصاص عادل بهم . فلم تكن حركتهم هذه ـ كما يظن بعض المؤرخين ـ محاولة للانقلاب على خلافة علي (رض) ، ونكث عهدهم معه بعد أن بايعوه ، كما

---

(١) انظر : الطبري : تاريخ ٥ / ١٠١ ، ١٢٩ ، البلاذري : أنساب لأشراف ٥ / ٧٣ ، ابن العربي : المصدر السابق هامش ١ ، ٢ ص ١٣٣ ـ ١٣٤ .

أنها لم تكن طلباً للخلافة نفسها . ونحن نقرأ في كتاب (فتح الباري) للحافظ ابن حجر نقلاً عن كتاب (أخبار البصرة) لعمر بن شبة وغيره من الوثائق الرسمية « .. أن أحداً لم ينقل عن عائشة ومن معها انهم نازعوا علياً على الخلافة ، ولا دعوا إلى أحد منهم ليولوه الخلافة ، وإنما أنكرت هي ومن معها على عليّ (رض) منعه من قتل قتلة عثمان وترك الاقتصاص منهم ، وكان علي ينتظر أولياء عثمان أن يتحاكموا إليه فإذا ثبت مع أحد بعينه من قتل عثمان اقتصّ منه . فاختلفوا بسبب ذلك وخشي من نُسِبَ إليهم القتل أن يصطلح الطرفان على قتلهم ، فأنشبوا الحرب بين علي وعائشة .. إلى أن كان ما كان »[١] .

وابن سبأ يبرز هنا مرة أخرى داعياً أتباعه من زعماء القبائل إلى عقد اجتماع مستعجل لمناقشة الموقف ، قبل أن يزول التوتر ، ويقع القتلة تحت طائلة القصاص ، لاسيما وأنهم رأوا من علي (رض) محاولة جادة لفرزهم تمهيداً لمحاكمتهم . وبعد مناقشات واسعة طرح الرجل رأيه : « **ياقوم إن عزكم في خلطة الناس فإذا التقى الناس غداً فأنشبوا القتال ولا تفرغوهم للنظر ، فمن أنتم معه ـ أي علي ـ لا يجد بداً من أن يمتنع ـ أي يدافع عن معسكره ـ ويشغل الله علياً وطلحة والزبير ومن رأى رأيهم عما تكرهون ..** »[٢] .

وفي مساء اليوم نفسه ، وكان المعسكران قد تهيئا لعقد الصلح نشب ذلك القتال المرير فيما سميّ بمعركة « الجمل » التي أسفرت عن انتصار معسكر علي ،

---

(١) ابن العربي : العواصم ، تحقيق محب الدين الخطيب هامش ١ ص ١٤٦ وهامش ١ وهامش٣ ص ١٥٨ .

(٢) انظر الطبري ٥ / ١٩٤ .

بعد قتل وجرح عدد كبير من الطرفين بما فيهم طلحة والزبير ـ الذي اغتيل بعد مغادرته أرض المعركة ـ وأعيدت عائشة إلى المدينة وسط مظاهر الحفاوة التي أحاطها بها علي (رض) . لكن معاوية ، رجل بني أمية القوي في الشام ، وأحد أقرباء عثمان ، لم يشأ أن يظل ساكتاً تجاه مّا يجري ، لاسيّما وأن كتاباً جاءه من علي ـ الذي تحول إلى الكوفة واتخذها مقراً له بدلاً من المدينة ـ يدعوه فيه إلى طاعته . وبعد مشاورات طويلة مع أصحابه قرر رفض الاستجابة ، وأعلن رفع السلاح بمواجهة الخليفة مطالباً إياه بتسليم القتلة باعتباره أحد كبار أولياء عثمان ، ومستفزاً عواطف جماهير الشام بإطلاعهم على قميص الخليفة المقتول الملطخ بالدم وأصابع زوجته نائلة . وإذْ كان الرجل قد ساس بلاد الشام سياسة ذكية ماهرة طيلة ما يقرب من العقدين كسب خلالها قلوب أهلها وإخلاصهم ، فلنا أن نتوقع كيف أن نوعاً من التكافؤ سيسود القوتين المتصارعتين وكيف أن الصراع نفسه سيطول ويزداد تعقيداً .

فشلت المفاوضات بين الطرفين ، وانتهىٰ الأمر إلى لقاءٍ عسكريّ حاسم في (صفيّن) على نهر الفرات مطلع عام ٣٧ هـ ، وعندما بدأت الكفة ترجح إلى جانب جيش علي (رض) أشار عمرو بن العاص على معاوية برفع المصاحف طلباً للتحكيم ، وبعد مناقشات طويلة في صفوف علي ، وافق علىٰ قبول التحكيم الذي ينصّ على أن يجتمع ممثلون عن الطرفين في رمضان في نفس السنة في منطقة بين العراق والشام تدعىٰ « أذرح » لتدارس جوانب الصراع والوصول إلى حكم نهائي فيه .

وليس كما ابتدعته روايات الاخباريين في العصر العباسي من أن عمرو بن العاص ممثل معاوية قد خدع أبا موسىٰ الاشعري ممثل علي ، بأسلوب أوبآخر ، مما سلّم به المؤرخون المعاصرون ، وانتهت الخدعة بإقالة علي من منصبه وتثبيت

معاوية خليفة للمسلمين ، وذلك أن معاوية لم يكن حتىٰ تلك اللحظة يطمح بالخلافة ، وما كان يريد أكثر من إقراره على ولايته ، وتسليمه قتلة قريبه عثمان أو القصاص منهم . لكن مسألة الطموح إلى الخلافة جاءت فيما بعد ، وبعد أن أخذ معسكر علي يشهد مزيداً من التمزق والمتاعب .. والذي حدث هو أن الرجلين : أبو موسىٰ وعمرو اتفقا على أن يحيلا أمر الخلافة إلى المسلمين الموجودين على قيد الحياة من كبار الصحابة ، ولم يكن ذلك يشمل معاوية أساساً ، لأنه لم يكن خليفة ولم يقاتل على الخلافة[1] .

ومهما يكن من أمر ، فان السنين الأخيرة من الثلاثينات مضت ومعسكر معاوية يزداد قوة وتماسكاً ومعسكر علي يزداد تمزقاً وضعفاً ، لاسيّما بعد انشقاق كتلة واسعة من أصحابه سُمّوا « بالخوارج » جاء انشقاقهم بسبب قبول عليّ مبدأ التحكيم . وقد استنزف ذلك جهداً كبيراً من الخليفة اضطره في نهاية الأمر إلىٰ قتالهم في النهروان ، وهزيمتهم بعد قتل عدد كبير منهم الأمر الذي جعلهم يزدادون نقمة عليه ، ويتآمرون للإطاحة به وبخصومه علىٰ السواء ، في محاولة لتخليص الأمة الإسلامية من مآسي الصراع الطويل . وإذْ أخفقت محاولتهم ضد معاوية وعمرو فقد نجحت تجاه الخليفة نفسه ، الذي قتل وهو يصلي الفجر في مسجد الكوفة في السابع عشر من رمضان سنة ٤٠ هـ وتوفي بعد يومين . وقد طلب منه أصحابُه أن يستخلف عليهم فقال : « لا . ولكن أتركُكم كما ترككم رسول الله ﷺ . وعن الشعبي أنه قيل لعلي : ألا تستخلف علينا ؟ قال : ما استخلف رسول الله ﷺ فأستخلف ، ولكن إن يرد الله بالناس خيراً فسيجمعهم بعدي على خيرهم كما جمعهم بعد نبيهم على

---

(١) ابن العربي : العواصم هامش ٣ ص ١٧٤ ـ ١٧٥ وهامش ١ ص ١٧٦ .

خيرهم »[١] .

بعد وفاة علي (رض) بويع لابنه الحسن ، الذي كان يتميز كأبيه برجاحة العقل والإيمان العميق ، ومنذ البداية سعى للتوصل إلى حلّ يوقف سفك الدماء عند حده ويعيد للأمة وحدتها التي مزقتها الفتنة ودخل في مفاوضات مع معاوية تكللت بالنجاح ، وأعلن الحسن تنازله عن الخلافة لمعاوية عام ٤١ هـ ومبايعته إياه حقناً لدماء الأمة على أن تعود بعد موته ـ فيما ذكرته بعض الروايات ـ شورى بين المسلمين .

هكذا اختتم عهد في التاريخ الإسلامي هو (العهد الراشدي) ، وبدأ عهد جديد حيث برزت إلى الوجود (الدولة الأموية) . ولئن كان المسلمون قد خسروا في خضم تلك الأحداث قيادتهم الراشدة ، إلا أنهم عادوا ثانية إلى وحدتهم ، وازدادوا حنكة ووعياً ، وتعلموا من التجارب والأحداث ما جعلهم أكثر استعداداً للتضحية والبذل من أجل حماية المنجزات التي منحهم إياها عصر الراشدين العظيم ، ومن أجل أن يظل مجرى الحياة الصاخب العميق محكوماً بكتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام .

☆ ☆ ☆

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ٥ / ٢٥٠ ـ ٢٥١ ، ٣٢٣ .

(٥)

سمي عام (٤١) للهجرة ، والذي بويع فيه لمعاوية بن أبي سفيان ، حيث قامت الدولة الأموية (٤١ ـ ١٣٢ هـ) بـ (عام الجماعة) ، ولهذه التسمية دلالتها ولا ريب ، فها هي الأمة الإسلامية تعود ثانية إلىٰ وحدتها ، بعد ذلك التمزق الذي عانته من جراء الفتنة وما أعقبها من أحداث .

وبغض النظر عن الأخطاء العقيدية التي ارتكبتها القيادة الأموية وبخاصة في مجال (نظام الحكم) ، والتي تسببت بعد وقت قصير في ظهور عدد من حركات المعارضة السلمية والمسلحة ، والتي تفاوتت في قوتها وفي تهديدها الفعلي للوجود الأموي ، بغض النظر عن هذا ، فإن وحدة المسلمين وحيوية قيادتهم الجديدة قبل أن يدب إليها الضعف وتستنزفها الصراعات القبلية والثورات المضادة أتاحت لحركة التاريخ الإسلامي أن تشهد مزيداً من الفعل والتمخض أغنت معطياته في ميادين السلم والحرب وزادته أصالة وعمقاً .

ولكن ، إلىٰ جانب هذه الإيجابيات التي شهدها وأنجزها العصر الأموي ، فإنه مارس وعانىٰ الكثير من السلبيات التي لم تكتف بالقضاء علىٰ القيادة الأموية وحدها ، وإنما امتدت لكي تحفر خنادق عميقة في جسد التاريخ الإسلامي نفسه وتلحق بالحركة الإسلامية ، في مفهومها الواسع ، متاعب ومآسٍ لا يمكن اغفالها بحال .

لقد ضرب الأمويون نظام الشورى في الحكم ، ذلك النظام القائم علىٰ حرية الانتخاب وحرية المعارضة ، والذي كانت القيادة الراشدة قد نفذته التزاماً بمعطيات القرآن والسنة في هذا المجال . ولقد ولّدت خطوة الأمويين هذه التي أقدم عليها معاوية في أخريات خلافته الكثير من ردود الأفعال ،

وبالتـالي من حركات المعـارضـة السلميـة والمسلحـة ، والتي استنزفت من جسـد الأمة الإسلامية طيلة العقود التالية الكثير من العناء والدمـاء ، بل أن بعضهـا تحول إلىٰ تجمع مذهبي وصل حـد الإنغلاق في عـدائـه مع خصومـه وأصبح علىٰ استعداد ـ حتىٰ ـ لتقبل عناصر غريبة شاذة ، لم يقل بها الإسلام يوماً أو يدعو إليها .. **إن الفعل الخاطىء يولّد ردّ فعل خاطىء يسـاويـه في القوة ويخالفـه في الاتجاه ، وهذا هو الذي حدث عبر عـديـد من حركات المعـارضـة الـدمويـة والتمزقات السياسية العنيفة التي شهدها العصر .**

ولقد مارس العديد من خلفاء بني أمية الخطيئة القاتلة ، حيث أشعلوا نـار العصبية القبلية وزادوا إضرامها بالتزام هذا الجانب القبلي أو ذاك ، الأمر الـذي فتّت قاعدتهم في بلاد الشام نفسها وشطرها شطرين ، أحدهمـا : قيسي ، ينتمي إلىٰ عرب الشمال ، والآخر : يمـاني ، ينتمي إلىٰ عرب الجنـوب . وقـد سعى معاوية المؤسس منذ البدء إلىٰ تلافي هذه المعضلة ونجح في ذلك إلىٰ حد كبير ، ولكن أعقابه ـ وبخاصة السلالـة المروانيـة التي تسلمت السلطـة عـام ٦٤ هـ علىٰ يـد مروان بن الحكم في أعقـاب تلـك المعركـة القبليـة العنيفـة بين اليمانيين والقيسيين ، والتي تعرف باسم (مرج راهـط) ، هـذه السلالـة ، مـارس معظم خلفائها ، سياسة قبلية واضحة ، أخـذت تتصـاعـد يومـاً بعـد يوم ، وامتـدت تأثيراتها إلىٰ كافة الأقاليم ، وإلىٰ سـائر مسـاحـات الحيـاة الإداريـة والسيـاسيـة والاقتصادية ، فكانت أحد العوامل الخطيرة في تدمير الوجود الأموي في نهـايـة الأمر .

ومنذ وفاة هشام بن عبد الملك عام ١٢٥ هـ ، وحتىٰ سقوط الدولة الأموية عام ١٣٢ هـ أخذت الأفعال وردود الأفعال القبليـة تتصـاعـد وتزداد استشراءً ،

وكانت من بين الثغرات العديدة التي نفذت منها الدعوة العباسية لتحقيق أهدافها .

...انحاز الوليد بن يزيد بن عبد الملك (١٢٥ ـ ١٢٦ هـ) إلىٰ القيسية وشدّد الخناق علىٰ اليانية ، فثاروا عليه ، وحرضّوا ابن عمه يزيد بن الوليد بن عبد الملك على البيعة لنفسه ، وتمكنوا أخيراً من قتله وتحقيق هدفهم بمبايعة يزيد بن الوليد ، الذي ما لبث أن وجد نفسه مضطراً لإخماد فتنة القيسية في أماكن متعددة من الشام وفلسطين ، كما اعتقل عدداً من قاداتهم ، فلما توفي في العام نفسه ، تولىٰ الخلافة من بعده أخوه إبراهيم ، إلاّ أن هذا لم يلبث في الحكم سوىٰ أشهر معدودات إذ تحرك ضده مروان بن محمد بأنصاره القيسيين وتمكن من هزيمة قواته من اليانيين قريباً من دمشق ، الأمر الذي دفعهم إلى سلسلة من الأعمال الانتقامية ضد القيسيين في دمشق ، لكن مروان ما لبث أن دخل دمشق وأخمد فتنتها ، لكنه لم يأمن علىٰ نفسه الإقامة فيها لكثرة اليانية فانتقل إلىٰ حرّان ..!! .

إلا أن انتصار مروان لم يحسم معضلة الصراع بين القيسية واليانية بل زادها اشتعالاً ، وما لبثت نارها أن امتدت إلىٰ كافة انحاء الدولة فثارت اليانية في حمص ، والغوطة ، وفلسطين ، وتمكن مروان من إخماد هذه الثورات ، الواحدة تلو الأخرىٰ ، لكن بعد أن كلفه ذلك غالياً . كما انتشرت الصراعات القبلية في المغرب والأندلس . أما العراق فقد شهد الصراع نفسه بين الجماعتين ، لولا أن حدّ من استشرائه تفاقم أمر عدوٍ مشترك ، هو الخوارج . وأما في خراسان فقد استفحل الأمر بين الطرفين ، وبلغ نقطة اللاعودة ـ رغم بعض المحاولات التي سعت لوقف الانهيار ـ ومنذ عهد هشام بن عبد الملك ، الذي تميز بكراهيته ليانية خراسان ، نجده يختار نصر بن سيّار لإدارة شئون الإقليم ،

لكن هذا كان كخليفته متعصباً علىٰ اليانية مبغضاً لها ، فكان لا يستعين بأحد منهم في عمله ، بل إنه عادىٰ ربيعة لميلها إلىٰ اليانية ولذلك عاتبه زعيم اليانية المعروف بـ «الكرماني» ، لكن نصراً لم يقبل عتابه، واعتقله، إلا أنه تمكن من الهرب ، فاجتمع إليه اليانيون وربيعة ، وعبثاً حاول نصر أن يصلح خطأه إذ كانت اليانية قد قررت أن يكون السيف وحده حكماً بينها وبين القيسيين الذين انضمّوا إلىٰ نصر عام ١٢٦ هـ .. واستمر الصراع سنين عديدة ، وخندق كل من الطرفين إزاء الآخر دون أن يتمكن أحدهما من أن يطوي الآخر ، الأمر الذي مكن للدعوة العباسية من أن تثّبت نفوذها هناك وتتحفز للأنقضاض علىٰ الخلافة الأموية نفسها .

وقد بقى أبو مسلم الخراساني شهوراً لا يجرؤ على الإستيلاء علىٰ مرو قاعدة خراسان ، لكنه أخذ يحتل المواقع المحيطة بها مستغلاً الصراع بين اليانيين والقيسيين ، وحاول نصر مرة أخرىٰ تحقيق الوفاق بين الطرفين دون جدوىٰ ، بينما كان أبو مسلم يذكي العداء بين نصر والكرماني ونزل في خندق ثالث بن خندقيهما واعتقد نصر أن قتل الكرماني سينهي المشكلة فدس إليه من اغتاله لكن ذلك لم يزد الأمر إلا تعقيداً إذ انضم معظم أنصاره لأبي مسلم ، الأمر الذي مكنه من تحقيق هدفه المرتجىٰ ودخل مرو في ربيع الآخر سنة ١٣٠[١] هـ . وكانت تلك البداية الحقيقية لنجاح الدعوة العباسية وانهيار الأمويين .

ويبرز عمر بن عبد العزيز ، الخليفة الأموي الثامن ، في محاولته الكبيرة

---

(١) المزيد من التفاصيل عن تطور الصراع بين القيسيين واليانيين في العصر الأموي أنظر كتاب د. عبد المنعم ماجد : التاريخ السياسي للدولة العربية ، الجزء الثاني وانظر على وجه الخصوص الصفحات ٣٠٨ ـ ٣٣٨ .

للعودة بالحياة إلىٰ أُطرها الإسلامية والتزامها المسؤول لمعطيات القرآن والسنة ، ظاهرة فذة تحمل دلالتها ليس علىٰ بطولة هذا القائد فحسب ، وانما علىٰ قدرة الإسلام نفسه علىٰ العودة باستمرار لقيادة الحياة السياسية والتشريعية والحضارية في نهاية الأمر ، وصياغتها بما ينسجم ومبادئه الأساسية .

إلاّ أن الخلفاء الأمويين الذين جاءوا في أعقاب عمر ، لم يواصلوا السير علىٰ الطريق ذاته ، بل إننا نجد ـ أكثر من هذا ـ أن الخليفة يزيد من عبد الملك (١٠١ ـ ١٠٥ هـ) الذي أعقبه مباشرة سعىٰ ـ كما يقول المؤرخ ابن الأثير ـ إلىٰ كل ما فعله عمر بن عبد العزيز فردّه ، أي أنه : نقض جميع إجراءات عمر وقام فيما يسمىٰ اليوم بثورة مضادة أودت في نهاية الأمر بمحاولة عمر التي كان يمكن لو قيّض لها من يواصل السير علىٰ منهجها ، أن تحمي الوجود الأموي نفسه من الدمار . فها هم خلفاء بني أمية المتأخرون يعودون إلىٰ ممارسة الأخطاء الكبيرة نفسها في مجالات السياسة والإدارة والإجتماع ، وبشكل أكثر حدة وعنفاً من ذي قبل ، كما مر بنا قبل قليل ، فكان أن تحققت سنة الله ، وتحركت القوىٰ المعارضة من خلال تنظيمات الدعوة العباسية السرّية الدقيقة : لكي تعلن عن ثورتها وتقضي في اشهر معدودات علىٰ ذلك البناء الشامخ الذي عاش ما يقرب من القرن من الزمان (وما كان ربك ليهلك القرىٰ بظلم وأهلها مصلحون)[١] .

ومهما يكن من أمر فإننا يجب أن نضع في الحسبان العصر الذي دوّنت فيه معظم أخبار بني أمية ، والأقلام التي كتبت مساحات واسعة من تاريخهم ، لكي لا نذهب في القدح وتلمّس الطعون إلىٰ مداهما كما هو واضح في (الرواية

---

(١) سورة هود آية ١١٧ .

التاريخية) عن بني أمية ، تلك التي صيغت في العصر العباسي الذي قام على أنقاض الأمويين وبنىٰ كيانه علىٰ حسابهم ، ودبجتها أقلام كانت تحمل شيئاً من الأحقاد والضغائن ضد هذه القيادة ، فما رعت الحقيقة وحدها حق رعايتها ، ولا سعت لأن تلتزم قدراً طيباً من الموضوعية ، واندفعت لا تلوى علىٰ شيء في كيل الاتهامات وقذف الشتائم - حتىٰ - بوجه بني أمية ومؤيديهم .

ولقد نّبهت قلة من المؤرخين الذين جاءوا فيما بعد - كابن العربي وابن خلدون - إلىٰ هذا الميل في الرواية التاريخية عن بني أمية ، وحذروا من الاستسلام الكامل لها . أما اليوم فإن النقد التاريخي أقدر ، وأولىٰ في الوقت نفسه ، على تجاوز الانجراف مع التيار ، والتحقق بقدر أكبر من التدقيق والتمحيص .

وتبقى سياسات القيادة الأموية بعد هذا كله تحمل وجهها الجميل والقبيح ، وجانبيها الإيجابي والسلبي ، ولن يكون بمقدور أحد أن يسلخ عنها هذا الجانب أو ذاك ، فان هذه القيادة التي تولت كبر الانحراف بتجربة الحكم عن مسارها الشوري الفذ صوب الملكية والوراثية ، هي نفسها التي تولت كبر أوسع موجة من الفتوحات في تاريخ الإسلام كله فيما سنتحدث عنه في فصل آخر ، وكان عدد من خلفائها علىٰ قدر طيب من الالتزام ، علىٰ الأقل في محاولة منهم لكسب تأييد جماهير المسلمين في داخل بلادهم وخارجها .

☆ ☆ ☆

(٦)

بدأ العباسيون حكمهم بطرح شعارات : العدل ، والمساواة ، والالتزام بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، إلاّ أنهم ما لبثوا أن أخذوا يتفلتون بشكل أو بآخر من التزاماتهم تلك ، بدأوا يشهدون المتاعب نفسها التي استنزفت أسلافهم الأمويين ، وأودت بدولتهم في نهاية الأمر .

ولم يحدث تغيير جذري يذكر في سياسات القيادة الجديدة ، خاصة وأنها اعتمدت نظام الحكم الوراثي نفسه الذي سنَّهُ الأمويون ، أما الصراعات أو الثنائيات القبلية التي مزقت جسد الدولة الأموية فقد مضىٰ عهدها في العصر العباسي بسبب تضاؤل الإحساس بالوجود القبلي ، وضعف الوحدة القبلية واندماجها في تيارات أكبر حجماً وتأثيراً ، ولكن هذه الصراعات أو الثنائيات ما لبثت أن برزت من جديد في صيغ وأطُر أخرىٰ ، متمثلة هذه المرة بصراع بين العرب والفرس حيناً ، وبينهما وبين الأتراك حيناً آخر ، وقد لعب هذا دوره الخطير في تفكيك عرىٰ الدولة العباسية وتدمير قوتها ووحدتها ، تماماً كما كانت العصبية القبلية قد لعبته في عصر الأمويين .

ومهما يكن من أمر فإن القيادة العباسية استطاعت إبان عصر حيويتها وقوتها الذي امتد قرناً من الزمن ، وبدأ منذ إعلان الدولة علىٰ يد أبي العباس السفاح عام ١٣٢ هـ ، وحتىٰ وفاة الواثق عام ٢٣٢ هـ مروراً بالمنصور (١٣٦ - ١٥٨ هـ) ، والمهدي (١٥٨ - ١٦٩ هـ) ، والهادي (١٦٩ - ١٧٠ هـ) والرشيد (١٧٠ - ١٩٣) ، والأمين (١٩٣ - ١٩٨ هـ) ، والمأمون (١٩٨ - ٢١٨ هـ) ، والمعتصم (٢١٨ - ٢٢٧ هـ) استطاعت خلال هذا العصر أن تحفظ وحدة العالم الإسلامي من التفكك والتمزق ، تماماً كما فعلت القيادة الأموية من قبل ، (فيما

عدا ـ بطبيعة الحال ـ الرقعة الأندلسية التي استأثر بها الأمويون) ، وأن تدافع عن حدود هذا العالم وثغوره بقدر كبير من الكفاءة والإخلاص ، لا بل أنها واصلت سياسات الأمويين في تشديد الخناق علىٰ الخصم التاريخي : الدولة البيزنطية وتدويخها بسلسلة دائمة من الحملات في قلب الأناضول لكي لا يترك لها المجال للتحول ثانية إلىٰ مواقع الهجوم .

هذا فضلاً عن أن القيادة العباسية وقفت طيلة هذا العصر ، والعصور التالية إلىٰ حد ما ، حارساً أميناً لوحدة العقيدة الإسلامية وصدّت كل ما من شأنه أن يمسَّ عقيدتهم بأذىٰ من محاولات الزندقة ، والحركات المجوسية ، أو الشعوبية التي صعّدت نشاطاتها في هذا العصر ، لكن العباسيين كانوا بالمرصاد . هذا إذا استثنينا ـ بطبيعة الحال ـ سياسات القهر العقيدي التي مارسها بعض الخلفاء وبخاصة المأمون والواثق اللذين التزما خط الإعتزال وأعلنوه مذهباً رسمياً للدولة واضطهدوا سائر من لم يعلن انتماءه إليه .

بعد انتهاء العصر العباسي الأول ، تعاقبت علىٰ قيادة الدولة أربعة عصور أخرىٰ هي : **عصر الأتراك** (٢٣٢ ـ ٣٣٤ هـ) ، ٢ ـ **العصر البويهي** (٣٣٤ ـ ٤٤٧ هـ) ، ٣ ـ **العصر السلجوقي** (٤٤٧ ـ ٥٩٠ هـ) ، ٤ ـ **وعصر الإحياء** الذي سبق سقوط بغداد علىٰ أيدي التتار عام ٦٥٦ هـ ، والذي سعىٰ فيه ، بعض خلفاء بني العباس الى استرداد دورهم القيادي الفعّال .

ولكننا نستطيع أن نُجمل هذه العصور جميعاً في عصر واحد ، هو العصر العباسي الثاني ، الذي فقدت القيادة العباسية في معظم مراحله قدرتها العملية علىٰ تسيير شئون الدولة ، وقنعت بالجانب الأدبي من الحكم .

ليس هذا فحسب ، بل إن هذه الانكماش فتح الطريق ، لأول مرة في التاريخ الإسلامي لإعلان (الخلافة) في أكثر من مكان في فترة متزامنة ، فها نحن نجد منذ منتصف القرن الرابع الهجري فما بعد ؛ ثلاثة خلفاء يحكمون العالم الإسلامي : أحدهم في بغداد ، والآخر في القاهرة ، والثالث في قرطبة . ولم يكن بمقدور الخليفة العباسي أن يفعل شيئاً إزاء هذا التحدي الجديد ، وإزاء هذه الازدواجية في مركز القيادة العليا الأدبية والمادية للأمة الاسلامية ، إذ أنه بما كان يعانية من حصار ، وجد نفسه أمام أمر واقع فاستسلم له ، ولم تجد الخلافتان الجديدتان في مصر والأندلس ما يعكر صفوهما من قبل الخليفة العباسي ، فواصلتا تجربتها بحّرية تامة ، ولم يكن سقوطهما في نهاية الأمر بسبب من الادارة العباسية نفسها وإنما لعوامل أخرىٰ أتت علىٰ الأمويين في الأندلس ، وساقت الفاطميين إلىٰ مصيرهم ، بعد أن لعبت كلتا الخلافتين دورهما المتشعب الواسع سلماً وحرباً ، إغناءً للمعطيات الحضارية الإسلامية ودفاعاً عن الأرض الإسلامية بمواجهة هجمات الخصوم المضادة .

إلا أن الأخطاء والممارسات ، التي آلت بالخليفة العباسي إلىٰ أن يشترك معه في الحكم خليفتان آخران ، وأن يزحمه في السلطة أمراء وسلاطين وملوك ، هي نفسها التي قادت الأمويين والفاطميين إلىٰ الانحسار والسقوط .

وخلال هذا العصر الطويل الذي تجاوز القرون الثلاثة ، تعاقبت قوىٰ مختلفة علىٰ مراكز النفوذ الحقيقي في الدولة العباسية ، ولم تكن كلها علىٰ قدر سواء في إهتماماتها ومطامحها ، أو تتشابه في سياساتها . فقد اكتسحت الأثرة الأتراك والبويهيين ، فلم يكن همهم سوىٰ تثبيت سلطتهم أكثر وتحقيق مغانم أكبر ، وهكذا ، فإننا لا نتوقع أن نجد في مرحلة تسلطهما انجازاً عظيماً علىٰ

المستوىٰ السياسي والعقيدي يجعل العالم الإسلامي يحقق تقدماً نوعياً في حركته التاريخية .

أما السلاجقة : فإننا نجدهم في عصر سلاطينهم الأُوَل الثلاثة الذين تسميهم المصادر التاريخية بالسلاطين العظام : طغرك بك وألب أرسلان وملك شاه يعبّرون كقوة تاريخية إسلامية شابة عن مطامح واسعة في كافة الاتجاهات ، مطامح حققت قدراً من التغيير لصالح عالم الإسلام ، فحمت وحدته السياسية ، ومدّت حدوده علىٰ حساب الممتلكات البيزنطية في الأناضول ، لاسيا بعد تدمير العمود الفقري لهؤلاء في معركة (ملاذ كرد) الحاسمة عام ٤٦٣ هـ ، ونَشَطت المؤسسات الحضارية وبخاصة الفكرية منها . إلا أنه ما أن توفي آخر هؤلاء السلاطين وهو ملك شاه عام ٤٨٥ هـ ، حتىٰ وقع السلاجقة في الخطأ التقليدي وهو التناحر علىٰ السلطة ، الأمر الذي أدىٰ إلىٰ تفكك عالم الإسلام وتجزؤه بشكل لم يسبق له مثيل من قبل ، وهيئت بذلك الفرصة أمام الغزو الصليبي وحملته الأولىٰ بالذات (٤٧٨ ـ ٥٤٣ هـ) ، لتحقيق أهدافه ، واحتلال أجزاء واسعة من الجزيرة الفراتية وبلاد الشام وفلسطين . ولقد استنزف الصراع مع القوىٰ الصليبية طيلة قرنين من الزمان (٤٩٠ ـ ٦٩٠ هـ) ، جهداً كبيراً من المسلمين والقيادات الإسلامية جعلهم ـ إلىٰ جانب عوامل أخرىٰ ـ لا يقدرون علىٰ ردّ الخطر الجديد الزاحف من الشرق ، الخطر التتري الذي لم يكن بأقل ضراوة من الغزو الصليبي نفسه ، والذي تمكن في منتصف القرن السابع للهجرة من تصفية القيادة العباسية والعديد من القيادات الإسلامية المحلية المتناثرة هنا وهناك .

☆ ☆ ☆

(٧)

ولنا الآن أن نقف قليلاً أمام مرحلة التجزّؤ أو ظاهرة التجزّؤ ، التي أخذ العالم الإسلامي يشهدها منذ أواخر العصر العباسي الأول ، وطيلة العصر التالي حيث اتسع نطاقها ، بحيث غدت الدولة العباسية نفسها جزيرة منعزلة وسط بحر مضطرب من الكيانات الاقليمية . نقف قليلاً ونتساءل : هل كانت هذه المرحلة أو الظاهرة شراً محضاً ؟ وبعبارة أخرىٰ ما هي الحصيلة النهائية لهذه الظاهرة في تاريخنا السياسي والحضاري علىٰ السواء ؟؟

إن التمزق الذي أصاب جسد الدولة الإسلامية ، بعد مرور عقود فحسب علىٰ نجاح العباسيين في تأسيس دولتهم ، وظهور عدد من الإمارات والمدن المستقلة في أنحاء شتىٰ من العالم الإسلامي ، رغم أنه يعد بحد ذاته ظاهرة سلبية وعَرَضاً مَرضياً خطيراً يدعو للتأمل والنقد ، إلا إن أُمة متحضرة كالأمة الإسلامية في ذلك العصر ، كان بإمكانها أن تحوّل هذه الظاهرة التي تبدو حتمية مقفلة وألا مناص لما قاله الله سبحانه : ﴿**وتلك الأيام نداولها بين الناس**﴾ إلىٰ حركة إيجابية مستمرة في مجالي السياسة والحضارة .. حيث صرنا نجد عدد من الدويلات تنشأ حيوية قوية لكي ترد علىٰ العدوان الذي كان يتهدد حدود الإسلام باستمرار في الغرب والشرق والشمال ، في وقت كان مركز الدولة الإسلامية فيه يعاني مرضاً وشيخوخة زمنية وإرهاقاً وغياباً مكانياً ، لم يتح له أن يقوم بالتصّدي الفعّال لهذه الأخطار .. كما صرنا نجد عدداً من الدويلات تنشأ لكي تزيد من حِدّة التنافس الحضاري بين إمارات المسلمين ، ولكي تعمق مجرىٰ الحضارة الإسلامية وتغنيها بمزيد من المعطيات ، الأمر الذي دفع تلك الحضارة خطوات واسعة عريضة إلىٰ الأمام .. ثم إنا صرنا نجد عدداً من هذه الدويلات يعيد بعث روح الجهاد في نفوس المسلمين ، ويصوغ تنظيمات

عسكرية وعقائدية وسياسية لتحقيق هذا الهدف العظيم ، الذي لولاه لما قامت للإسلام قائمة . ولو أن تمزقاً جغرافياً وسياسياً كهذا أصاب أمة منحلّة متعبة مكدودة ، لأطاح بها وبمقدراتها ولَقَدّمَها لقيماتٍ سائغة لأولئك المتربصين بها علىٰ الحدود . وشواهد التاريخ كثيرة في هذا المجال .

هذا هو القانون الحضاري الذي لا يخطىء : **إن أمة تتميز بالتحضر والحيوية ـ وهما بلا شك أمران متلازمان ـ بمقدورها ان تحيل كل ظواهر الهدم في جسم الأمة ، إلىٰ قيم إنشاء وإبدا ع وبناء ، لأن الإنسان هو الذي يتحكّم في صياغة الظروف الخارجية ، إن امتلك زمام نفسه وسعىٰ دوماً إلىٰ ممارسة عملية التغيير الذاتي التي أعلن عنها القرآن الكريم في قانونه الثابت :(إن الله لا يغيّر ما بقوم حتىٰ يغيروا ما بأنفسهم)** . إن الفيضانات الخطيرة ، قوة هائلة مدمرة ، ولكن (الإنسان) هو الذي يحيلها إلىٰ أداة تنمية واستثمار أو يتركها تغرق المزارع والحقول ، وتكتسح المواقع والقرىٰ .. وإنه لتحدٍ خطير يطرحه سبحانه لكي يستثير همة الإنسان وحيويته وفاعليته علىٰ نطاق (الطبيعة) ، حيث الصواعق والزلازل والفيضانات والأعاصير ، وعلىٰ نطاق (التاريخ) حيث النشوء والسقوط ، والسلم والحرب ، والتحضر والهمجية ، يلفها جميعاً قانون الله الخالد :(وتلك الأيام نداولها بين الناس) !!

هكذا استطاع (المسلم) أن ينطلق من نقطة الضعف هذهِ ، حيث تمزق الدولة الواحدة إلىٰ مدن وأقاليم ودويلات ، إلىٰ آفاق القوة والتحضر والإبداع .. وبدلاً من أن يستسلم للظاهرة ويجلس قابعاً في حدود إمارته المنشقة ، نجده يقف متحفزاً للحركة من أجل عالم الإسلام كله . بمجرد أن تتاح له القيادة الصالحة المرنة الذكية المخلصة المجاهدة التي تعرف كيف توجه الحركة إلىٰ هدفها المطلوب .

هكـذا لعب (الأدارسـة) (١٧٢ ـ ٣٧٥ هـ) دورهم في المغرب ، في مـدّ الإسلام إلىٰ قلب القارة السوداء عبر مسالكها الشمالية الغربيـة ، وكانوا أول من مهد الطريق للنشاط الواسع الذي مارسه الدعاة إلىٰ الإسلام في تلـك القـارة . وهكذا لعب (الأغـالبـة) في تونس (١٨٤ ـ ٢٩٦ هـ) ، دورهم في صـد خطر البيزنطيين تجاه السواحل الإفريقية ، وفي تحويل مواقف الدفاع الذي اتخـذتـه هـذه المنطقـة إلىٰ هجوم استمر عقوداً طـويلـة من الـزمن ، واستطـاع أن يجلـو قوات البيزنطيين إلىٰ داخل القـارة الأوربيـة ، وأن يكتسح جـزرهم في البحر المتوسط لكي ما يلبث أن يحيل هذا البحر الكبير إلىٰ بحيرة إسلامية ، وينشىء في جزرها ومرافئهـا حضـارة غنيـة ، كانت أحـدىٰ الجسور التي انتقلت عليهـا حضارة المسلمين إلىٰ الغرب . وهكذا لعب الطولونيون في مصر والشـام (٢٥٧ ـ ٢٩٢ هـ) دورهم في إيقاف محاولات البيزنطيين الارتدادية صوب بلاد الشـام . وهكذا لعب الحمدانيون في حلب (٣١٧ ـ ٣٩٤ هـ) دورهم المشهور في صدّ تلك المحـاولات نفسهـا ، وهي علىٰ أعنف مـا تكـون ، وتمكنـوا من كسر حـدّتهـا . وهكـذا لعب السـامـانيـون فيما وراء النهر (٢٥١ ـ ٣٨٩ هـ) دورهم في نشر الإسلام والثقـافـة الإسلاميـة في أقـاليم التركمان الـوثنيـة الشـاسعـة الممتـدة حتىٰ أطراف الصين ، وفي تحـويـل هـذه القرىٰ البـدويـة التي لا تعرف السلم والإستقرار ، إلىٰ قوة بشرية مسلمة مثقفة مستقرة ، مارست دورها ـ فيما بعد ـ علىٰ طريق الإسلام . وهكـذا لعب الغزنويون (٣٥١ ـ ٥٨٢ هـ) والغـوريـون من بعدهم (٥٤٣ ـ ٦١٢ هـ) ، في شمال الهند ، إزاء الهنود الوثنيين نفس الـدور الذي لعبـه رفـاقهم السـامـانيون من قبل إزاء الأتراك . وهكـذا أيضـاً ظهرت دولتـا المرابطين (٤٤٨ ـ ٥٤١ هـ) والمـوحـدين (٥٢٤ ـ ٦٦٧ هـ) في المغرب لكي تعيدا للجهاد الإسلامي مفهومه الثائر العميق ، ولكي تُنْشِئـا التنظيم الـذي

يكفل تحقيق هذا الهدف ، ولكي تتحرك هذه التنظيمات للدفاع في الوقت المناسب عن مقدرات الإسلام والمسلمين ، في وقت كانت القوىٰ الصليبية تتحرك فيه لتوجيه ضربة ساحقة للجناح الغربي من عالم الإسلام . ثم إذا ما التفتنا إلىٰ الدويلات التي قامت في ظل العصر السلجوقي في الجزيرة الفراتية والشام والأناضول وجدناها تُسهم هي الأخرى إسهاماً قيادياً مباشراً وخطيراً ضد الغزو الصليبي في حملته الأولىٰ (٤٨٥ ـ ٥٤١ هـ) علىٰ الجناح الشرقي للعالم الإسلامي .

إن حضارة الإسلام ـ كما أكد كثير من المستشرقين والمؤرخين ؛ هي حضارة (الوحدة والتنوع) ولقد انعكست هذه السمة الأصلية علىٰ ظاهرة نشوء الدويلات في عالم الإسلام ، فصرنا نجد تنوعاً في التشكيلات السياسية التي انشقّت عن جسد الدولة ، وصرنا نجد في الوقت نفسه وحدة وتجانساً وتعاطفاً في العطاء الحضاري ، وفي الأساليب والأهداف الكبرىٰ ، وفيما عدا حالات محدودة لهذه القاعدة الشاملة حالات ظهر فيها عدد من الدويلات تبنّت مبادىء وعقائد باطنية إباحية هدّامة ، ذات جذور فارسية ويهودية غريبة عن عقيدة الإسلام وتصوّره وقيمه ، دويلات لّمت شعث مبادئها الغريبة هذه من نظريات رجعية موغلة في البعد عن جوهر التوحيد وسماحة الإسلام وحريته وانكشافه .. دويلات مارست قواها الذاتية لا في الدفاع عن أرض الإسلام وعقيدته ووجوده ، وإنما ضد أرض الإسلام وعقيدته ووجوده (كما فعلت دولة قرامطة البحرين على سبيل المثال) ، بل ان بعضها (كالدولة البابكية في أذربيجان) سعىٰ إلىٰ عقد محالفات ومواثيق مع الأعداء الخارجيين المتربصين على الحدود والثغور ...

فيما عدا حالات كهذه ، حيث التشكيلات السياسية الإسماعيلية بمختلف

أجنحتها ، والتي لا زالت بحاجة ماسّة إلىٰ دراسات أصيلة لتفحص دوافع نشوء الحركات المذهبية التي أقامتها ، وأهدافها ، وارتباطاتها السرّية مع الحركات المجوسية والصليبية واليهودية ، دراسات تنظر بعمق وموضوعية إلىٰ الأرضية الاجتماعية الظالمة ، التي ألجأت الكثير من البائسين والمظلومين إلىٰ الانضواء إليها ، ولكنها لا تغفل في الوقت نفسه عن تركيب (القيادات) وعلاقاتها وارتباطاتها ، الأمر الذي قادها إلىٰ الوقوف ، لا بوجه السلطة كجهاز سياسي متعّسف ، ولكن بوجه الإسلام كعقيدة وتنظيم ، وإلىٰ الصراع ، لامع بني العباس كقيادة عربية مستأثرة ، ولكن مع الوجود العربي نفسه ..

فيما عدا هذه الحالات فإن معظم التشكيلات السياسية التي شهدها عالم الإسلام ، أسهمت حسب قدراتها وطاقاتها في (خدمة) هذا العالم سياسياً وحضارياً ، ولن تغني الأمثلة الموجزة هنا عن واقع تاريخنا نفسه[١] .

☆ ☆ ☆

---

(١) لمزيد من التفاصيل ، انظر مقدمة كتاب : (المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي : عصر ولاة السلاجقة) للمؤلف .

(٨)

برز العثمانيون كقوة إسلامية فتية ، وكأنهم جاءوا استجابة لنداء تاريخي ، لضرورة زمنية اقتضت ظهورهم لحماية الأرض والأمة الإسلامية من هجوم غربي صليبي استعماري شامل ، كان يعد العِدّة لاكتساح عالم الإسلام ، مستغلاً ضعف قياداته ودُوله ، وتمزقها وعدم امتلاكها القدرات المادية والروحية والبشرية للردّ علىٰ التحدّي الغربي .

كان المسلمون لا يزالون يعانون من الجراح التي أثخنتهم بها الهجمتان القاسيتان : هجمة الصليبين ، وهجمة المغول باندفاعيها الأول والثاني . صحيح أنهم خرجوا من كلتا المحنتين منتصرين ، ولكن بعد أن استنزفهم الصراع الطويل استنزافاً لا يرحم ، وها هي القوىٰ الغربية تتحفز لهجوم جديد .

هكذا تتبدىٰ الأهمية البالغة لظهور القيادة العثمانية في هذه الفترة بالذات . فهم لم يقفوا عند حدود الدفاع عن مقدرات الأرض والأمة الإسلامية ، وإنما تجاوزوا ذلك إلىٰ الهجوم علىٰ عالم الغرب نفسه ، واجتياح أسواره الشرقية وإختراق أوربا باتجاه العمق .

كانوا في القرون الأولىٰ التي أعقبت ظهورهم ، يملكون حيوية حركية فائقة ، مكنتهم من تحقيق مهمتهم التاريخية تلك، إلاّ أنهم لم يلتفتوا إلىٰ **مسألة بالغة الخطورة؛ تلك هي: ضرورة تحقيق قدر من التوازن بين تفوق طاقاتهم العسكرية وبين تنمية قدراتهم الحضارية ، فالإبداع الحضاري هو : القاعدة الضرورية الصلبة للتحقق من أي انتصار سياسي أو عسكري ولديمومته كذلك .** وإذا حدث أحياناً أن انتصرت قيادة ما علىٰ خصمها انتصاراً سياسياً أو عسكرياً ، دون أن تعزز ذلك بالتحرك السريع علىٰ مستوىٰ الإنجاز

الحضاري ، فإنها كمن يضع نفسه علىٰ فوهة مدفع ، أو يسوقها إلىٰ الانتحار ، سيا وأن خصمهم أدرك هذه الحقيقة ، وسعىٰ إلىٰ استغلال الزمن لصالحه ، وإلىٰ لردّ علىٰ التحدي العثماني العسكري بتحقيق تفوق حضاري ، وتقني ، بطبيعة الحال لم يكن آخره ابتكار وتطوير أسلحة جديدة ونظم عسكرية متقدمة .

ولا يعني هذا ، أن العثمانيين ظلوا علىٰ بداوتهم التي حملوها معهم من بلاد التركستان ، كلا .. فإنهم بمجرد إقامة دولتهم علىٰ أنقاض إمبراطورية متقدمة حضارياً هي الإمبراطورية البيزنطية ، وجدوا أنفسهم مضطرين إلى انشاء وتطوير بعض المؤسسات الحضارية ، إلاّ أن كل ما فعلوه في هذا المجال ، لم يكن بأكثر من انجازات مفككة ، ومعطيات مبعثرة ، لم يربط بينها رابط استراتيجي ، ولاسعت إلىٰ أن تبرمج لنفسها ، أو أن تملك رؤية شمولية تعرف كيف تحيل الإنجاز الحضاري قوة دافعة تفيد من عامِلَيْ الزمن والمكان ، لتحقيق مزيد من التقدم الفعّال .

صحيح أن العثمانيين اعتنقوا الإسلام بإخلاص بالغ ، وهضموا وتمثلوا الكثير من قيمه ومبادئه ، لكنهم لم يدركوا جوانب أساسية في بنية الأيديولوجيه الإسلامية ، أو علىٰ الأصح لم يأخذوا بها ، تلك هي ضرورة التوازي في الحركة التاريخية ، بين التوسع العسكري ، وبين الانتشار العقائدي ، والتقدم الحضاري . ولقد حدثنا القرآن الكريم في سورة الحديد ـ علىٰ سبيل المثال ـ عن ذلك الارتباط الوثيق بين هذه الجوانب الثلاثة [1] ، وكان هذا بمثابة مؤشر أساسي، يبدو أن العثمانيين لم يلتفتوا إليه بشكل صحيح، ليس هذا فحسب بل

---

(١) انظر كتاب آفاق قرآنية للمؤلف ، موضوع (سورة الحديد) .

إن العثمانيين لم يسعوا إلىٰ فهم المغزىٰ العميق لعصور التألّق الإسلامي ، حيث كان الإسلام يفتح صدره لكل التيارات الحضارية ، يختبرها ، ويكشف عن قيمها ، ويمارس إزاءها عملية انتقاء واعية ، فيأخذ ما ينسجم مع قيمه وتصوراته ، ويرفض ما يناقض روحها وجوهرها ، وهو في كل هذا يتقدم بالحضارة الإسلامية خطوات واسعة إلىٰ الأمام .

إن هذا التناقض المحزن في المسيرة العثمانية ، بين القوة العسكرية والإبداع الحضاري ، قاد العثمانيين إلىٰ مأساة مزدوجة فمكّن خصومهم منهم في نهاية الأمر ، وأعطاهم في الوقت نفسه الحجة عليهم ، فمن خلال ادعاءاتهم المتلاحقة بضرورة الإصلاح ، ومن خلال تخاذل السلطة العثمانية أو اضطرارها للاستجابة لهذه الادعاءات التي يسندها تفوق حضاري متزايد ، فتح الخصم ثغرات في جسد ما أسماه بـ (الرجل المريض)، ووجه منها ضربات قاتلة ، أطاحت بهذه الدولة التي وقفت القرون الطوال عند تخوم عالم الإسلام تمنع عنه وتحميه .

حتىٰ لقد سجّل سلطانها (الحقيقي) الأخير ، في مرحلة تدهورها وسقوطها ، مواقف تاريخية حاسمة بمواجهة الضغوط الغربية الصليبية والصهيونية . إنه علىٰ سبيل المثال ـ رفض تنفيذ أي مطلب من مطاليب اليهود في فلسطين ، ولم يشأ أن يساوم علىٰ شبر واحد من الأرض الإسلامية ، رغم أن الحركة الصهيونية قدمت له عروضاً مغرية للاستجابة لبعض مطالبها .

وبسقوط السلطان عبد الحميد الثاني يرحمه الله عام ١٩٠٩ م ، انتهى الدور التاريخي للدولة العثمانية ، وامتطىٰ قياداتها العليا ومناصبها الأساسية جماعة من الاتحاديين ، الذين كان بعضهم منتمياً إلىٰ التنظيمات الماسونية ، وبعضهم الآخر إلىٰ يهود الدونمة ، فمارسوا سياسة التتريك ، وفتحوا بذلك ثغرة جديدة واسعة بين الأتراك والشعوب الأخرىٰ في الدولة العثمانية ، وبخاصة العرب ،

نفذ منها الاستعمار الصليبي ، والحركة الصهيونية ، وتمكنا من تحقيق انتصارات ساحقة علىٰ هذه الدولة المهّجنة - مستغلين انتصار معسكر الحلفاء في الحرب العالمية الأولىٰ - آلت إلىٰ تجريد الدولة العثمانية من سائر ممتلكاتها خارج الأناضول ، ومنح اليهود وعداً بفلسطين ، وتدفق هجرتهم إليها ، ثم ما لبثت تركيا نفسها أن ابتليت بزعيم علماني مصنوع علىٰ عين الغرب ورعايته ، وجّه الضربة الحاسمة الأخيرة للخلافة العثمانية ، وقاد بقايا الوجود العثماني صوب تقليد هجين ، أخذ عن الغرب بعضَ مظاهره دون عناصر قوته الحقيقية ، ودفع بأبناء شعبه بالقسر والإكراه ، للتخلي عن الكثير من التزاماتهم العقيدية التي حملتهم يوماً إلىٰ أعماق أوربا ، ومنحتهم السيادة علىٰ العالمين .

إن الانقلاب علىٰ السلطان عبد الحميد يرحمه الله ، يكسب خطورته البالغة من كونه مؤامرة دولية كبيرة ، استهدفت تدمير قيادة إسلامية عميقة الجذور ، ذات تقاليد موغلة في الزمن ، وعمر جاوز الثلاثة عشر قرناً .. ومهما كان حجم الأخطاء التي مارستها هذه القيادة ، فإنها لم تكن بشيء إزاء الخطيئة الكبرىٰ التي نفذها قادة ما بعد السقوط ، أولئك الذين قادوا عالم الإسلام الى التمزق ، وضيّعوا فلسطين ، وساقوا شعوبهم إلىٰ التبعية والضياع .

☆ ☆ ☆

(٩)

والآن ، وبعد هذا الاستعراض السريع لمسيرة القيادات والدول الإسلامية عبر التاريخ ، هل نستطيع أن نضع أيدينا ، بقدر من التجريد ، علىٰ العوامل التي ساقت هذه القيادات ، والدول إلىٰ مصائرها ، فضلاً عن الأسباب الخاصة التي كانت ترتبط بكل تجربة فتقودها إلىٰ السقوط ؟

نعم ... وإن هنالك ما يمكن اعتباره سنناً عامة ، تفسر لنا ليس علىٰ مستوىٰ التاريخ الإسلامي فحسب ، بل علىٰ المستوىٰ البشري عموماً ، لماذا تنتهي معظم الكيانات في التاريخ إلىٰ التدهور والاضمحلال والسقوط ، ويمكن بتفحصها إلقاء مزيد من الإضاءات على أحداث ومصائر تجاربنا التاريخية بالذات .

وسوف نتجاوز هاهنا الاستدلال بالشواهد لأننا لو شئنا أن نأتي بها لتأكيد الدور الذي تلعبه العوامل التي سنشير إليها ، لدَفَعَنا هذا إلىٰ استعراض معظم وقائع التاريخ الإسلامي ، سيا تلك التي تكثر وتتكاثف في الفترات الأخيرة من عمر كل دولة أو كيان ، شهدته مسيرة هذا التاريخ ، ومن ثم فلن يتسع المجال بحالٍ من الأحوال ، وما أوردناه عرضاً عبر التحليل ، يكفي ليكون مجرد نماذج ومؤشرات فحسب لحشود نمطية من الوقائع والأحداث .

هناك الدافع العقائدي : الذي يصنع الدول ، ويلعب في الوقت نفسه دوره الخطير كعامل يشدّ مسيرتها ومعطياتها ، ويزيدها فاعلية وتركيزاً . فإذا ما ضعف هذا الدافع ، أو عانت التجربة من تقطّعه وغيابه بهذه النسبة أو تلك ، فقدت قدرتها علىٰ النمو والاستمرار ، وتفككت الأواصر التي تشدّ أجزاءها وتحركها صوب هدفها الواضح المحدد ، فتبعثرت وعجزت عن مواصلة المسير .

إن ضعف هذا الـدافع يقود ـ كـذلـك ـ إلىٰ التحلّل الخلقي المـدمّر ، وتميّع العلاقات العامة ، والتماسك الاجتماعي ، وضيـاع المسؤوليـة الـذاتيـة ، وغيـاب رقابة الضمير ، وهي أمور تؤول إلىٰ تناقص القدرة علىٰ الفاعلية والعطـاء ، التي هي أساس قوة الدول ونموها وازدهارها .

إن غيـاب الـدافع العقـائـدي ، أو ضعفـه ، يصيب إرادة الإنسـان بـالخمول والعجز والكسل ، ويصدّها عن المبادرة الدائمة لاستغلال عنـاصر الزمن والمكان وللتحقق بمزيد من التقدم والإبداع .

وترتبط بهذا العامل ، مسـألـة أخرىٰ لا تقل أهميـة في تـأثيرهـا علىٰ سقوط الـدول الإسلاميـة علىٰ وجـه الخصوص ، إنهـا فقـدان حركـة الجهـاد ديمـومتهـا وحيويتها وقد بيّنا في أكثر من مكان من هـذا الكتـاب الأهميـة البـالغـة لهـذه الحركة ، وإرتباطها الصحيح بصيرورة الدول الإسلامية ، وفاعلية قياداتهـا قوة أو ضعفاً .

هنالك (طبيعة النظام) بالنسبة لدرجـة المرونـة التي يتمتع بهـا ، فحيثما انخفضت النسبة ، حيثما مال النظام إلىٰ الصلابة ، وتجـاوز حـده المعقول في ذلـك ، فـآل بـه الأمر إلىٰ التيبّس والتكسّر والسقـوط ، وحيثـما ارتفعت النسبة فجـاوزت حـدهـا المعقول ، كـذلـك ، حيثـما مـال النظـام إلىٰ التسيّب والتفكك ، وانتهىٰ به الأمر إلىٰ الفوضىٰ التي تسوقه إلىٰ الدمار .

هنالك مـدىٰ قـدرة الجماعـة التـاريخيـة ، قيـادة وقواعـد ، علىٰ الاستجابة للتحديـات المتجـددة ، طبيعيـة وبشريـة ، واجتيـاز الامتحـان بنجاح يمنحها مزيداً من الخبرات والقـدرة علىٰ التجـدد ومواصلـة المسير ، فـإذا عجزت عن الاستجابـة ، واستسلمت للتحـديـات ، وجـدت نفسهـا مضطرة إلىٰ

التخلي عن المسرح ، والانزواء بعيداً تاركة الساحة لمن يقدر على الثبات بوجه الأعاصير ، مستمداً منها طاقة أكبر علىٰ التقدم والاندفاع .

هنالك ما يحدث في كثير من الأحيان من اختلال مفاجىء أو تدريجي في ميزان القوىٰ الدولية نتيجة ظهور قوىٰ كبرىٰ جديدة تغادر عزلتها لهذا السبب أو ذاك ، وتكتسح الكيانات القديمة المحمّلة بالمتاعب والأخطاء نتيجة امتدادها الزمني الطويل .

هنالك الامتداد المكاني ـ كذلك ـ حيث تجد الدولة نفسها وقد انتشرت علىٰ مساحات واسعة من الأرض ليس بمقدورها ، في معظم الأحيان ، تغطيتها تماماً بالهيمنة والفاعلية .. وحيث يعجز (القلب) عن ضخ الدماء الجديدة إلىٰ كافة الجهات ، وتوصيل الحيوية والانتعاش إلىٰ كافة الأطراف ، فتتفكك وتستسلم للتجزؤ والتفتت والانهيار .

ويرتبط بهذا في كثير من الأحيان تنوع العناصر التي تشارك في التجربة التاريخية، حيث يحدث الاصطراع فيؤثر علىٰ وحدة التجربة وعلىٰ قدرتها علىٰ العطاء بسبب من التضارب بين الطاقات ، الأمر الذي يشلّ فاعليتها ويفتح الثغرات في جسدها لرياح التخريب والتفكك والدمار .

هنالك خصيصة الطموح البشري الذي يسيطر علىٰ كثير من القادة والزعماء ، فيدفعهم إلىٰ بذل المزيد من الجهد وتجميع كافة الطاقات للتحقق بهذا الطموح ، إن علىٰ مستواهم الفردي ، أو على مستوىٰ السلالة التي يرأسونها ، أو الأمة التي يقودونها ويكون هذا ـ في معظم الأحيان ـ علىٰ حساب الأمم والدول والكيانات الأخرىٰ .

هنالك الازدواج الذي تعانيه السلطة في مناصبها القيادية العليا بسبب وجود أكثر من مركز للقوة يسعىٰ إلىٰ التفرّد بالسلطان ، يتمثل حيناً بتزامن وليين للعهد مرة واحدة ، ويتمثل حيناً آخر بالتنافس بين الإدارة المدنية والمركز العسكري ، ويتمثل حيناً ثالثاً بعمليات الشدّ والجذب بين مسؤولَيْن كبيرين كخليفة وسلطان ، أو أمير ، أو وزير .. وهكذا .

وهنالك التناحر الحزبي ، أو القبلي ، أو المذهبي ، أو السياسي ، إلىٰ آخره ..

ووقوع السلطة في خطيئة التزام هذا الجانب ، أو ذاك ، ودفع القوىٰ الأخرىٰ بالتالي إلىٰ اتخاذ موقف المعارضة والعداء ، وربما السعي للتعويض عن طريق تحقيق ذاتها في أطرف الدولة ، في حالة عجزها عن الأمر في المركز نفسه .

هنالك انعدام مبدأ تكافؤ الفرص أو انحساره ، حيث تعطىٰ المناصب الحساسة والمراكز الحيوية ليس للمتفوقين الذين يمتلكون القدرة علىٰ التجدد والعطاء والإبداع وإرفاد التجربة بخبراتهم العميقة ونظراتهم الصائبة ، وإنما لذوي الكفاءات المحدودة ، أوْ لأولئك الذين لا يملكون أية كفاءة لهذا السبب أو ذاك .

وهنالك النقمة الشعبية التي تسري كالنار في صفوف الجماعات ، والتي تتمخض بالضرورة عما تمارسه بعض السلطات من كبت واستئثار وطغيان . إن لكل فعل رد فعل يساويه في القوة ويخالفه في الاتجاه ، وها هنا سيكون الردّ عنيفاً بالقدر الذي يمارسه الطغيان ، وهو أحياناً بسبب من عنفه واندفاعه لا يقف عند حدوده الثورية التي تهدم وتبني ، ولكنه

يتجاوزها إلىٰ الفوضىٰ والتخريب ، فيقود التجربة إلىٰ الانحلال والدمار .

ويرتبط بهذا ما يتعلق بالمعضلة الاقتصادية في جوانبها كافة : الأنشطة والإدارة والعلاقات والإنتاج والتوزيع ، حيث تلعب الفوضى الاقتصادية دوراً خطيراً في ضعف الدول وأيلولتها للسقوط بسبب من أن الاقتصاد هو الأساس المتين الذي تبني عليه قدراتها المادية في كافة الميادين ، بما فيها الميدان العسكري بطبيعة الحال . إن النشاط المتعثر والإدارة السيئة للماكنة الاقتصادية والاضطراب في تنظيم مالية الدولة ، والظلم في فرض الضرائب ، والقلق والتخلف في الإنتاج ، وسوء التوزيع .. وغيرها ، يلعب دوره الخطير في تدمير الإمكانيات الاقتصادية للدولة ، ويشل ـ بالتالي ـ قدرتها علىٰ الامتداد ، والضبط ، والردّ علىٰ التحديات .

وهذا ينقلنا إلىٰ ما يتمخض عنه سوء التوزيع بالذات ، من تفكك اجتماعي ، وتضخم طبقي يؤول إلىٰ مزيد من الصراع ويدفع الجماعات المسحوقة للحركة والثورة ضد مستلبي حقوقها ، أولئك الذين يتربعون علىٰ القمة ويحتكرون المال والسلطة معاً .

وثمة الاختلال في التوازن بين القيم الروحية والمادية،وما يتمخض عنه من تأثير سيىء علىٰ مصير الدول والحضارات، لأن البديل ليس سوىٰ جنوح صوب المادية ، وإهمال للمطالب الروحية والغيبية والخلقية ، أو توجه روحي يهمل المطالب المادية ويتجاوز ضروراتها ، وفي كلتا الحالتين تفقد الحضارة ، أو الدولة الممثلة لها ، القدرة على مواصلة الطريق صوب مزيد من التقدم والقوة والازدهار . فليس بمقدور الإنسان ، فرداً وجماعة ، أن يكون قديراً علىٰ

الفاعلية والعطاء وهو يتجاوز (وضعيته) البشرية الأصيلة المتوازنة ابتداء ، فينحرف عن سويته ذات اليمين أو ذات الشمال .. إن عدم التحقق بالصحة الذاتية أو السوية الآدمية ليمثل ـ بحق ـ واحداً من أشد عوامل السلب في تاريخ الدول والحضارات ، ويفسّر في الوقت نفسه أسباب انتكاساتها وانكساراتها عبر التاريخ .

هل نستطيع ـ أخيراً ـ أن نضيف السُنّة الكونية الأكبر والأخطر تلك التي تدور ـ بالطبيعة والحياة والأشياء والخلائق والتاريخ ـ دوراتها المعروفة ، بين البدء والمصير ، حيث يعقب الارتفاع بدء الحركة الدورية ، ثم ما يلبث أن يهبط بها صوب مصيرها المحتوم ؟

ليس لغير ما سبب هذا الذي يحدث ، ولكنه يحدث للأسباب التي أشرنا إليها باقتضاب ، وأي دولة أو حضارة لا تتناوشها الأسباب ؟!.

تلك هي الحكمة الكبيرة التي يلتمسها الإنسان وهو يقف قبالة التاريخ ، الذي يدور بدوله وحضاراته .. والآية القرآنية الكريمة تظل تتردّد أصداؤها على مدار الزمن والمكان ﴿ **وتلك الأيام نداولها بين الناس** ﴾[١] .

☆ ☆ ☆

(١) سورة آل عمران آية ١٤٠ .

(١٠)

بموازاة القيادات (أو السلطـة) الإسلاميـة عبر التـاريخ ، وقبـالتهـا ، كان يتدفق تياران كبيران ؛ استهدف **أحـدهمـا :** تغيير القيـادة من الـداخل تغييراً جزئيـاً بتحقيق بعض الإصلاحـات ، أو كليـاً بـالانقلاب عليهـا وإنشـاء صيـغ وسياسات جديدة لا تمت إليها بصلـة واستهـدف التيـار **الآخر :** الثورة علىٰ القيادة من الخارج وإزاحتها عن مركز السلطة لتحل محلها .

نجحت محـاولات في كـلا التيـارين وأخفقت أخرىٰ ، وفي الحـالتين كانت المحـاولات الانقلابيـة ، وحركات المعـارضـة تشكل مسـاحـة واسعـة في صيرورة التاريخ الإسلامي وتؤكد باستمدادها في معظم الأحيان من المصـادر الإسلاميـة كتاباً وسنة ورصيداً تشريعياً وتنفيذاً تاريخياً ، دورَ الإسلام في صياغـة حركـة التاريخ الإسلامي وتشكيل وقائعـه ، وأن هـذا التـاريخ إنمـا هو ابن العقيـدة وامتـدادهـا المتحقـق بـالايجـاب والسلب ، في مـدىٰ الـزمن والمكان ، وأنـه ـ كذلك ـ ليس تاريخ السلطة وحدها كما يتوهم الكثيرون أو يوهموا أنفسهم .

فأما المحاولات الانقلابية من الداخل ، فقد جـاءت دراستي عن تجربتيْ عمر ابن عبد العزيز[١] ، ونور الدين محمود[٢] ، محاولة لرصد وتحليل اثنتين منهـا تميزتا بالشمولية والامتداد ، واستطاعتا أن تحققا نجاحاً منقطع النظير علىٰ كافـة المستويات ، وقد دلّ نجاحها الباهر ، رغم تباين الزمـان ، علىٰ إمكانيـة تنفيـذ (التجربة) في أية فترة تاريخية تتوفر عبرها الشروط التي توفرت في محـاولتَيْ عمر بن عبد العزيز ونور الدين محمود . «لقد علمتنا تجربة عمر بن عبد العزيز،

---

(١) انظر كتاب (ملامح الانقلاب الإسلامي في خلافة عمر بن عبد العزيز) للمؤلف .

(٢) انظر كتاب (نور الدين محمود : الرجل والتجربة) للمؤلف .

أكثر الحقائق أهمية في تاريخ البشرية عموماً وتاريخ المسلمين خصوصاً ، تلك هي : أن الانقلاب الذي أحدثه عمر في فترة حكمه القصيرة ، في حياة الناس وأهدافهم واهتماماتهم ، وفي ميادين العمل جميعاً : سياسة وحرباً ، إدارة واجتماعاً واقتصاداً ، وتربية وتثقيفاً ، والنجاح الكبير الذي حققه هذا الانقلاب في شتى أبعاده ، إزاء ظروف صعبة معقدة ، وركام عقود طويلة من السنين ، انحرفت بكثير عن المفاهيم والقيم والمبادىء الإسلامية ، وأحدثت فصلاً وثنائية ، بدرجة أو أخرىٰ ، بين عقيدة الإسلام وشريعته وبين الواقع الذي يعيشه الناس .. إن تمكّن عمر من إعادة التوحيد بين الشريعة والواقع ، وربط أجهزة الدولة جميعاً بالأُطر التي رسمها القرآن والسنة ، وتوجيه حياة الناس ومعطياتهم وفق ما يريده الله ورسوله ﷺ .. هذا النجاح ، يشير بوضوح إلىٰ إمكان تنفيذ البرنامج الإسلامي ، وتطبيق شرائع الإسلام وعقائدياته علىٰ واقع الحياة، في أية فترة يمكن أن يستلم فيها السلطان رجالاً يمتلكون الذكاء والحصافة والمرونة ، إلىٰ جانب الإيمان العميق والتقوىٰ الدائبة التي تشد أعينهم أبداً إلىٰ القيم العليا التي جاءوا ليحققوها ، وإلىٰ المخاطر التي تهدّد هذه القيم والأهداف .. التقوىٰ التي تقضي علىٰ رغائبهم الخاصة ومطامحهم الشخصية ، وتوجه طاقاتهم جميعاً كي تصب في المحيط الواسع الذي يذيب كل العقبات ، ويهدم كل السدود التي تسعىٰ للوقوف بوجه العودة بالحياة والأحياء إلىٰ طريق الله .. تلك هي الحقيقة الكبيرة ، التي تُعلّمنا إياها الرحلة عبر حياة الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز ، ذلك الذي قاد ثورة إسلامية ضد أوضاع شاذة في مختلف الجبهات ، وتمكن بذكائه وحصافته ومرونته وإيمانه وتقواه من إحراز النصر العظيم »[١] .

---

(١) ملامح الانقلاب ص ٢٠١ ـ ٢٠٢ .

أما محاولة نور الدين محمود : « فيما يمكن تسميته باطمئنان : إقامة الحكم الإسلامي في دولته ، فإنها تأتي شاهداً تاريخياً آخر على أن الإسلام كعقيدة (أيديولوجية) قدير في أية لحظة تتوفر فيها النية المخلصة ، والإيمان الصادق والالتزام المسؤول ، والذكاء الواعي ، على التماس مع واقع الحركة التاريخية وصياغتها ، أو إعادة صياغتها ، على ضوء معطيات الإسلام كتاباً وسنة ، واجتهاداً ورصيداً تشريعياً ، وعلى أن الجماهير الإسلامية مهما صُدّت عن الاتصال المباشر بموارد فكرها وعقيدتها وتاريخها ، فإنها تظل تحمل في عقولها وقلوبها ووجدانها ، ذلك التواصل الدائم والتناغم العميق مع هذا الدين الذي كرمها الله ورسوله به ، والذي لن تجد معه في أي (بديل) قد يجيء من هنا أو يؤتى به من هناك إلا التغرب والتمزق والانقطاع .

« إنها جماهير قرون الالتزام الطويلة ، ليس مع عقيدة كالعقائد التي تحمل (الخرافة) التي تسقط بها في بدء الطريق ، أو (العتمة المادية) التي تضل معها في منتصف الطريق ، ولكنها عقيدة المنطق البشري ، والتوازن المعجز بين مطالب الروح العليا وضرورات المادة وشدّها .. إنها لن تجد ما تضيعه هناك : العقل أو الروح أو الجسد . ومن ثم تظل تحمل الاستعداد للعودة إلى العقيدة التي ماضيعتها إذ تفرقت بها السبل ، العودة التي كانت تتحقق كفعل تاريخي من خلال بروز تحدّ خارجي أو داخلي خطير ، أو في أعقاب ظهور قيادة واعية مؤمنة .. العودة التي كانت تخرج بها دوماً من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام »[١] .

(١) نور الدين محمود ص ٥ ـ ٦ .

وأما حركات المعارضة ، فإن جذورها تمتد إلىٰ فترة مبكرة من تاريخ الإسلام ، ولم تكن واقعة (الفتنة) إلا تعبيراً بشكل أو آخر عن الجدل مع السلطة ، ولقد تبلورت عبر تلك الواقعة ، وبخاصة في مراحلها الأخيرة : الصراع بين علي كرم الله وجهه ومعاوية « رض » الملامح الأساسية المبكرة لحركات المعارضة الثورية الأولىٰ في التاريخ الإسلامي : « الخوارج » وتتابعت من بعدها الحركات : الشيعة بأجنحتها المختلفة ، حركة المختار ، الحركة الزبيرية ، حركة يزيد بن الملهب ، حركة ابن الأشعث ، الحركة العباسية حركات المرابطين والموحدين .. التنظيمات الصوفية والحرفية .. إلىٰ آخره ..

كلها استهدفت الثورة علىٰ القيادات القائمة وتولي زمام السلطة ، ومعظمها كان يملك برامج عمل ذات خلفية عقيدية ، أو سياسية علىٰ أقل تقدير ، ومعظمها ـ كذلك ـ كان يملك رؤية إسلامية ، كلٌّ حسب اجتهاده ومن زاوية رؤياه المذهبية أو الحزبية .

وإذا استثنينا بعض الحركات التي قامت في بلاد فارس ، كالراوندية والمقنّعية والخرّمية وغيرها ، تلك التي بحثت عن استناداتها المذهبية في عقائد ما قبل الإسلام ، وسعت إلىٰ تقويض الدين والسلطة العربية معاً بدوافع شعوبية أو مذهبية محدودة ، فإن جل حركات المعارضة التي قارعت السلطة ، وسعت إلىٰ توليّ مركز القيادة ، كانت ترفع شعاراتها الإسلامية الخالصة ، وتحمل وجهاً إسلامياً صرفاً ، وتبحث عن متكآتها وأصولها في صميم المصادر الإسلامية النظرية والتاريخية .

ورغم ذلك ، فإنه ليصعب علىٰ المرء الذي يحمل رؤية نقية للإسلام ، وفهماً موضوعياً لمعطياته وطروحاته أن يحكم بإسلامية هذه الحركات جميعاً ، أو يصدق الادعاءات التي اعتمدت عليها بعض الفرق لتبرير وجودها وانتشارها

ومطالبتها بالسلطة ، فالمسألة بالنسبة لعدد من هذه الحركات ، لم تكن في نهاية التحليل سوىٰ اعتماد الإسلام وسيلة ، فحسب ، لتحقيق الكسب الجماهيري في مجتمعات تدين بالإسلام أولاً وأخيراً ، ولتبرير مشروعية تحركها لمجابهة القيادة الحاكمة وإزاحتها والجلوس في مراكزها .

ولم يكن هذا ليمثل أيما خطر حقيقي علىٰ الإسلام في مفهومه الشامل ، لأن الوقائع التاريخية كانت سرعان ما تكشف عن الدوافع الحقيقية لعدد من تلك الحركات ، هنالك ، حيث تسقط الحجة ، ويختفي المبرر ، وتضيع الحركة في تيارٍ صاخبٍ يطوي في جناحيه كل من يسعىٰ إلىٰ ركوبه لتحقيق كسب محدود .

إنما كان يتمثل الخطر فيما يمكن تسميته بالعقائد التحريفية ، المضافة إلىٰ جسم الإسلام لتكون بمثابة بطانة أو خلفية تتخلق في رحمها الحركة وتكسب الأتباع وتربطهم عن طريق تغذيتهم غير المشروعة بطروحات تلك العقائد التحريفية التي ما أنزل الله بها من سلطان .

وبمرور الوقت تتراكم تلك التحريفات ، وتزداد كَمّاً ونَوْعاً ، وتتعقد وتتشابك إما علىٰ مستوىٰ النظرية الخارجية نفسها ، أو مضافة إلىٰ عقول المنتمين إليها ووجدانهم ، الأمر الذي يزيدها تحريفاً وامتداداً .

كان بعضها يستمد جذور جانب من معطياته من مصادر غير إسلامية وثنية أو يونانية ، أو يهودية ، أو فارسية ، أو نصرانية ، وكان بعضها الآخر يتجاوز مفاهيم التوحيد الخالصة ، والتحرر الوجداني التي أكدها الإسلام ، وأقام عليها بنيانه ، إلىٰ نوع من الوثنية الجديدة ، القائمة علىٰ تقديس الأشخاص والتعبد للزعامات الدينية مناقضاً بذلك (البداهات) العقيدية

للإسلام نفسه[١] .

وكان بعضها الثالث يتفلّت من القيم الأخلاقية الإسلامية ، أو حتى الشعائرية بهذه الحجة أو تلك ، فيغدو سلوكه وممارساته وكأن لا علاقة لها بالانتماء الإسلامي لأصحاب هذه الحركات .

وكان بعضها الرابع ، يقوم علىٰ أشد صيغ الطبقيات الدينية انغلاقاً بحصر علم التأويل وفهم المسائل الدينية بأيدي قلة من الرجال ـ مما كان معروفاً في الإكليروسية النصرانية ـ وهو موقف نقيض تماماً لما عرف في الإسلام ، كتاباً وسنة ، من انفتاح وتكشف كاملين للمعطيات الدينية علىٰ مستوىٰ الجماهير كافة ، لكلٍّ من يشاء أن يعرف هذه المسألة أو تلك ، ويتأكد من هذه القضية أو تلك ، ولم يكن فهمها يوماً حكراً علىٰ واحد من الناس من دون الآخرين .

وعلىٰ المستوىٰ السياسي ، فإن عدداً من هذه الحركات ما كان يجد أيّما رادع أو ضَيْر في مد يديه إلىٰ الخصوم التاريخيين للإسلام والأمة الإسلامية ، بحثاً عن إسناد عسكري أو مادي يعينهم علىٰ تحقيق أهدافهم[٢] .

وأما على المستوىٰ الحضاري ، فقد اعتمد عدد من تلك الحركات علىٰ مناهج فوضوية ، أو تخريبية ، أو حتىٰ بدوية ، تقف علىٰ النقيض من قيم الإبداع والبناء والتحضّر ..[٣] .

---

(١) انظر على سبيل المثال ما رواه المقريزي في كتابه السلوك لمعرفة دول الملوك ، الجزء الثاني ، القسم الأول ، الصفحات ١٧٤ ـ ١٧٨ (تحقيق د. محمد مصطفىٰ زيادة) وما رواه النويري في كتابه (نهاية الأرب في فنون العرب) الجزء الثلاثون ص ١١٣ ـ ١١٤ وغيرهما .

(٢) انظر على سبيل المثال : بندلي جوزي : من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام ص ٧٨ ـ ١١٦ .

(٣) انظر على سبيل المثال : المرجع السابق ص ١٥٩ ـ ٢١٧ .

لكن هذا كله لم يمنع من أن يكون تيار المعارضة الأوسع والأرحب والأكثر ثقلاً ، تياراً إسلامياً صادقاً ..

وها هنا يتوجب ألا نقع في الوهم الخادع الذي يصوّر السلطة أو القيادة الإسلامية (التاريخية) ، كما لو كانت أمراً مقدساً أو تفويضاً إلهياً ، فان أية قيادة في مدى عالم الإسلام ، ما أن تنحرف بهذه الدرجة أو تلك ، وما أن ترفض النقد والتقويم والرجوع إلى الطريق ، حتى يغدو على المسلمين أن يثوروا لتحقيق ما عجزت الكلمة والحوار عن تحقيقه .

لقد كانت هذه المسألة بمثابة بداهة واضحة في اذهان المسلمين وحسّهم وشعورهم ، تماماً كما كانت واضحة كفلق الصبح في عقل القيادة الراشدة وحسها وشعورها ، وإن كلمات الخليفة الأول أبي بكر رضي الله عنه والتي سبق وأن وقفنا عندها ، لتختصر المسألة كلها وتركزها في مقولات واضحة قاطعة كالسكين .

وما قاله أو فعله الراشدون من بعده ، كان تنفيذاً تاريخياً فذاً لهذه المقولة .

لقد كان الحاكم المسلم الحق : هو الذي يضع خدّه على الأرض لأهل العفاف وأهل الكفاف ، كما أعلن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وليس ذلك الذي يعلن نفسه ظلاً لله في الأرض لا يستمع لنقد ، ولا ينتمي لحق ، ولا يكفكف طغيانه صوت مظلوم .

إن المسلمين كانوا مدعوّين دائماً لأن يرفضوا طاعة السلطة لحظة اعوجاجها وخروجها عن الطريق ، وليس العكس أبداً كما يتوهم الكثيرون لهذا السبب أو ذاك .

إن طاعة أولي الأمر تتحقق يوم يكون أولو الأمر مسلمين حقاً ، وإلاّ فإن الرفض ، والمجابهة ، والثورة ، تغدو واجبة كوجوب الصلاة والزكاة والصيام ، من أجل تسليم الزمام لمن يعرف كيف يتعامل مع السلطة بما يريده الله ورسوله .

وهكذا فإن حركات المعارضة التي قارعت القيادات والسلطات ، ليست شراً كلها كما يتصور التقليديون ومبررو سياسات الحكام والطواغيت ، ولكنها محاولات جادة لإعادة الأمور إلىٰ وضعها الطبيعي . ورغم ما انتابها من أخطاء ، وما لابس معطياتها من شوائب وأكدار ، فإن الدافع في أحيان كثيرة كان : هو التحقق بالإسلام علىٰ مستوىٰ (القيادة) باعتبارها مفتاح الحركة العقيدية والتاريخية علىٰ السواء .

« تم بحمد الله »

أهم المراجع

القرآن الكريم .

البخاري : أبو عبد الله بن إسماعيل
صحيح البخاري ، المطبعة السلطانية ، القسطنطينية ـ ١٣١٥ هـ .

البلاذري : أحمد بن يحيى بن جابر
أنساب الأشراف ، الجزء الأول ، تحقيق محمد حميد الله ، دار المعارف ، القاهرة ـ ١٩٥٩ .

الخطيب : محب الدين
حملة رسالة الإسلام الأولون ، دار الكتاب العربي ، القاهرة ـ؟.

خليل : عماد الدين
آفاق قرآنية ، دار العلم للملايين ، بيروت ـ ١٩٧٩
دراسة في السيرة ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ـ ١٩٧٤
في التاريخ الإسلامي : فصول في المنهج والتحليل ، المكتب الإسلامي ، بيروت ـ ١٩٨٠ المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي : عصر ولاة السلاجقة في الموصل ، مكتبة المعارف ، الرياض ـ ١٩٨١ .
ملامح الانقلاب الاسلامي في خلافة عمر بن عبد العزيز ، الدار العلمية ، بيروت ـ ١٩٧٠ .
نور الدين محمود : الرجل والتجربة ، دار القلم ، دمشق ـ ١٩٨٠ .

الشريف : د . أحمد إبراهيم
مكة والمدينة في الجاهلية وعصر الرسول ، الطبعة الثانية ، دار

الفكر العربي ، القاهرة ـ ١٩٦٥ .

الطبري : محمد بن جرير
تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم ، دار المعارف ، القاهرة ـ ١٩٦١ ـ ١٩٦٢ .

عثمان : د . محمد فتحي
دولة الفكرة ، الدار الكويتية ، الكويت ـ ١٩٦٨ .

ابن العربي : القاضي أبو بكر
العواصم من القواصم ، تحقيق محب الدين الخطيب ، الطبعة الثانية ، الدار السعودية ، جدة ـ ١٣٨٧ هـ .

فلها وزن : يوليوس .
تاريخ الدولة العربية وسقوطها ، ترجمة د . محمد عبد الهادي أبو ريدة ، الطبعة الثانية ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ـ ١٩٦٨ .

ابن كثير : أبو الفدا إسماعيل
البداية والنهاية ، مطبعة السعادة ، القاهرة ـ ١٩٣٢

ماجد : د . عبد المنعم
التاريخ السياسي للدولة العربية ، الطبعة الثالثة ، مكتبة الجامعة العربية ، بيروت ـ ١٩٦٦ .

كتب المؤلف

ملامح الإنقلاب الإسلامي في خلافة عمر بن عبد العزيز .
عماد الدين الزنكي .
خطوات في الهجرة والحركة .
دراسة في السيرة .
الإمارات الارتقية في ديار بكر .
نور الدين محمود .
دراسات تاريخية .
في التاريخ الإسلامي .
ابن خلدون إسلامياً .
حول القيادة والسلطة في التاريخ الإسلامي (هذا الكتاب) .
مؤشرات حول الحضارة الإسلامية .
العقل المسلم .
لعبة اليمين واليسار .
أضواء جديدة على لعبة اليمين واليسار .
تهافت العلمانية .
التفسير الإسلامي للتاريخ .
مقال في العدل الاجتماعي .
الحصار القاسي .
آفاق قرآنية .
مع القرآن في عالمه الرحيب .
حول إعادة تشكيل العقل المسلم .

خمس مسرحيات إسلامية .
المأسورون (مسرحية) .
مشكلة القدر والحرية في المسرح الغربي المعاصر .
في النقد الإسلامي المعاصر .
الطبيعة في الفن الغربي الإسلامي .
فوضى العالم في المسرح الغربي المعاصر .
جداول الحب واليقين (شعر) .
رحلة في المصير (شعر) .
معجزات في الضفة الغربية (مسرحية) .
الشمس والدنس (قصة) .

إستدراك

سقط سطر من الفقرة الثانية في ظهر الغلاف ، نأسف لذلك وتصحيحها كالتالي :

فإنها تظل تحمل في عقولها وقلوبها **ووجدانها ، ذلك التواصل الدائم والتناغم العميق مع** هذا الدين ...

رقم الإيداع ٥٤١٤ / ٨٥